ظهورات العذراء

لكاترين لابوريه، (الإيقونة العجائبيّة)

و

لألفونس راتسبون

طبعة أولى

٢٠١٢

*

منشورات المكتبة البولسية

جونيه – شارع القدّيس بولس – ص.ب: ١٢٥
هاتف: ٩١١٥٦١ – ٠٩/٩٣٣٠٥٢ – فاكس: ٠٩/٦٤٣٨٨٦
بيروت – شارع لبنان – هاتف: ٠١/٤٤٨٨٠٦ – تلفاكس: ٠١/٤٤٤٩٧٣
زحلة – شارع سيّدة النجاة – مُقابل مُطرانيّة الروم الملكيّين الكاثوليك – تلفاكس: ٠٨/٨١٢٨٠٧

سلسلة ظهورات

٧

ظهورات السيّدة العذراء

لكاترين لابوريه، (الإيقونة العجائبيّة)

ولألفونس راتسبون

أديب مصلح

٢٠١٢

ظهورات السيّدة العذراء

لكاترين لابوريه

(الإيقونة العجائبيّة)

أسرة «لابوريه» (LABOURÉ)

إنّه يوم التاسع من شهر تشرين الأوّل ١٨١٥، وفي قريةٍ فرنسيّةٍ صغيرةٍ، فتاةٌ في التاسعة من عمرها، تُدعى «كاترين لابوريه» – ولكنّها، في المنزل، تُدعى «زويه» – تنتحب مفجوعةً على أُمّها التي خطفتها المنيّة، فجأةً. ويشاركها النحيب شقيقةٌ كبرى وشقيقةٌ صُغرى، وسبعة إخوةٍ لم يتجاوز أصغرهم الخامسة من سنيه، وهو مبتلًى بإعاقةٍ من جرّاء حادثٍ.

الوالدة المتوفّاة تدعى «مادلين كونتار»، وقد رحلت قبل تخطّيها السادسة والأربعين. كانت ابنة أُسرةٍ ميسورةٍ، ولكنّها أصبحت قرويّةً فلاّحةً، بزواجها من «پيير لابوريه»، وسكنت معه في قرية «فان لي موتييه» (Fain-les-Moutiers)، التي لا يتجاوز عدد سكّانها المئتين، وحيث تتبوّأ أُسرة «لابوريه»

مكانةً مرموقةً، وتولّى فيها «پيير لابوريه» منصب العمدة، منذ عام ١٨١١ حتّى عام ١٨١٥.

في العشرين من عمره كان «پيير لابوريه» قد انضوى إلى إكليريكيّةٍ، وباشر دروسًا تؤهّله للكهنوت. غير أنّ الثورة التي استبدّت بفرنسا قد أفضت إلى إغلاق الإكليريكيّات، فأُكره الشابّ على العودة إلى مزاولة الزراعة، مهنة أجداده التقليديّة، محافظًا على مشاعر مسيحيّةٍ حيّةٍ.

وفي الخامسة والعشرين من سنيه التقى «مادلين كونتار»، التي كانت ابنة أُسرةٍ مرموقةٍ، في قرية «سينايّي» (Senailly)، القريبة من قريته، فتزوّجها، وعمل في مزرعة والدتها، إلى أن أوكل إليه والده، الذي أثقلت السنون كاهله، مزرعة آبائه، وساعده على اقتنائها، بتسليفه ما مكّنه من أدائه لشقيقيه ولشقيقته ثمن حصصهم من الأرض الموروثة.

ورُزق الزوجان، في غضون عشرين سنةً، سبعة عشر ولدًا، لم يعِش سبعةٌ منهم أكثر من أيّامٍ أو أشهرٍ معدوداتٍ. أمّا

الأبناء الذكور الذين كُتبت لهم الحياة، فلم يستسيغوا حياة القرية والزراعة، فامتهن أحدهم الجنديّة، وهاجر الآخرون إلى باريس، حيث تعاطوا أعمالاً تجاريّةً، فتولّت الأُمّ مهامّ المنزل والحقل، إلى جانب العناية بأطفالٍ توالت ولاداتهم بلا هوادةٍ، إلى أن هوت تحت العبء الباهظ. وعند وفاتها، كانت ابنتها الكبرى، «ماري لويز»، في مدرسةٍ داخليّةٍ، برعاية خالةٍ لها، زوجة ضابطٍ، لم تُرزَق أولادًا، فاستُدعيت إلى البيت حيث أُسندت إليها مهامّ أمّها المتوفّاة.

طفولةٌ شاقّةٌ في كنف الأمّ السماويّة

في غمرة حزنها، ومن خلال عَبَراتها، لمحت كاترين، فوق رفٍّ في غرفة والدتها المتوفّاة، تمثالاً للعذراء، فاستعانت بمنضدةٍ صغيرةٍ، وصعدت إليها، فقبّلتها والتمست منها أن تكون لها، بعد الآن، أُمًّا. ومنذ تلك اللحظة، كفكفت دموعها، ووطّنت العزم على تولّي مصيرها بيدها.

وكم هي كانت بحاجةٍ إلى تلك العزيمة! فقد كان عليها أن تقاسي، إلى جانب يُتم الأُمّ، ضربًا من يُتم الأب الذي اضطُرّ، بسبب عجزه عن رعايتها ورعاية أختها الصغرى «تونين»، إلى إيكالهما لرعاية عمّةٍ لهما، تقطن في قرية «سان ريمي» (Saint Rémy). وكان نأيها عن مسقط رأسها، وفراقها لأبيها الذي تربطها به علاقةٌ وثيقةٌ مميّزةٌ، جرحًا آخر موجعًا، ونفيًا أليمًا.

هذا المنفى استمرّ سنتين وبضعة أشهرٍ، استبدّ، بعدها، الشوق بالوالد إلى صغيرته الأثيرة، فاستعاد طفلتيه إلى بيته. وكانت هذه العودة لكاترين عيدًا مزدوجًا، إذ تسنّى لها أن تحتفل، يوم ٢٥ كانون الثاني من عام ١٨١٨ بمناولتها الأولى، فكان لتلك المناسبة وقعٌ بهيجٌ على نفسها، وأثرٌ بليغٌ على مستقبل مسيرتها الروحيّة. وقد سعدت، من جانبٍ آخر، بانغماسها من جديدٍ في جوّ المزرعة الذي كان يحتلّ من نفسها موقعًا أثيرًا، وفي أحضان أبيها الدافقة حنانًا.

وكانت عودتها حلاًّ طالما تطلّعت إليه شقيقتها الكبرى «ماري لويز» التي كانت تصبو إلى تكريس ذاتها لخدمة الله والفقراء، في إطار رهبنة «بنات المحبّة» التي أسّسها القدّيس منصور دي پول. فعكفت على تدريب كاترين على النهوض بمهامّ المنزل والمزرعة، وسعدت بما وجدته لديها من تأهّبٍ لتولّي هذه المسؤوليّات، ومن تفاهمٍ وتواطؤٍ مع والدهما. هذه العوامل، مجتمعةً، كانت لها مفترجًا، ومناسبةً ملائمةً لتخطّي العقبات الحائلة دون تحقيق حلمها.

كانت كاترين، حينذاك، في الثانية عشرة، وعندما أزف موعد انطلاق شقيقتها الكبرى إلى الدير، ربّتت على كتف أختها الصغرى «تونين»، قائلةً:

– «نحن الاثنتين سنتعاضد على النهوض بكلّ المهامّ».

كان استنصارها بالعذراء، يوم وفاة أمّها، ما زال يبثّ فيها العزيمة والشجاعة. وإذ بابنة الاثنتي عشرة سنةً، تلك، ناضجةٌ لتولّي المهمّات التي رزحت أمّها تحت وِقْرها، ولكي تصبح ساعد والدها.

مهمّةٌ شاقّةٌ انبرت لها تلك الفتاة المقدامة، ببسالةٍ وكفاءةٍ. ففضلاً عن الغسيل والطبخ والخياطة، والعناية بوالدها، وبشقيقها الأصغر المعاق، كان عليها تزويد الحصّادين بالطعام صيفًا، وفي كلّ يومٍ إطعام الدجاج، وزهاء ثماني مئة حمامةٍ كانت تزدهي بها مزرعة «لابوريه». وقد حرصت دائمًا على إنجاز كلّ المهامّ اليوميّة والموسميّة بدقّةٍ. ومع كلّ ذلك، لم تتفوّه، يومًا، بلفظة تذمّرٍ، ولم يظهر عليها ما يُشعر برزوحها تحت وقر المهمّات الباهظة.

في تلك السنّ المبكّرة، غدت كاترين ربّة منزلٍ ممتازةً، آمرةً، ناهيةً، وسيّدة مزرعةٍ تُعَدّ الأولى في القرية، ملكةً دؤوبةً على العمل، ومدبّرةً نبيهةً، إذ سرعان ما استغنت عن بعض الخدم والمساعدين، آخذةً على عاتقها ما كانوا يضطلعون به من خدماتٍ، توفيرًا في النفقات. وما لبثت أن أضحت السيّدة والخادمة، في آنٍ واحدٍ، حريصةً على ألاّ تُعنى بنفسها إلاّ بعد خدمتها جميع الآخرين. في مملكتها، كانت، دائمًا، أولى المستيقظات، وأكثر العاملات جهدًا، ولم يفاجئها الفجر، يومًا، وهي نائمةٌ. وأَلِفت توقير الأكبر منها، والإصغاء إليهم.

نشأت في مدرسة الصمت والاحترام، معملةً الفكر بتؤدةٍ، بغية جعل المُحال ممكنًا، كلّما اقتضت الحاجة. ودأبت على العيش مع الله، في إيمانٍ وحبٍّ، ولطالما سعدت بلقاء العذراء في الكنيسة مقدّمةً ابنها الفادي، أو باسطةً ذراعيها، مرحّبةً بكلّ قادمٍ إليها.

وقد اتّضح للمقرّبين منها أنّ مناولتها الأولى كانت منعطفًا

أساسيًّا ومؤثّرًا في مسيرتها الروحيّة. فقد تجلّت عليها أمارات الورع، والتأمّل، ونزعاتٌ صوفيّةٌ. وباتت تستعجل الفراغ من مهمّاتها المادّيّة التي تحرص على أدائها أداءً كاملاً، كي تنصرف إلى الصلاة التي تسبغ معنًى وطعمًا على كلّ شيءٍ.

ولّما بلغت الرابعة عشرة، عزمت على الصوم يومي الجمعة والسبت من كلّ أسبوعٍ، على ألاّ تُنقص شيئًا من دأبها على العمل اليدويّ الجادّ. وخشيت عليها أختها الصغرى «تونين» مغبّات هذه الوتيرة من الحياة، فجهدت لثنيها عنها، بلا جدوى، فوشت بها إلى والدها الذي سعى، هو أيضًا، عبثًا، إلى صرفها عن مشروع الصوم، الذي مضت فيه إلى آخر الشوط.

ولطالما شوهدت تُمضي ساعاتٍ طويلةً، راكعةً، مصلّيةً، على بلاط الكنيسة البارد. وقد سبّبت لها هذه الممارسة التهاب مفاصل ظلّت تقاسي منه حتّى نهاية حياتها.

في كنيسة قريتها التي كانت تقصدها للصلاة، كان مخبأ القربان فارغًا، بسبب عدم وجود كاهنٍ مقيمٍ. ولكنّ حضور

الربّ المهيمن على المكان كان يفعم قلبها، وفراغ الكنيسة كان يكثّف الصمت، ويرسّخ توقها إلى الله. لم يكن يُتاح لها التقاء الله في الإفخارستيّا، ولكنّها تلتقيه في قلبها الذي ما برح يضجّ بالأسرار التي تلقّتها وتأثّرت بدمغتها، وكانت تلتقيه، أيضًا، في الفقراء الذين تستقبلهم، وتعودهم، وتساعدهم.

كانت أسرة كاترين قد رمّمت موهف (سكرستيّا) تلك الكنيسة، وصمدت فيه لوحةً لسيّدة الحبل بلا دنس، وأمامها كانت كاترين تنفق ساعات تأمّلٍ طويلةً، مستمدّةً منها غذاءها الروحيّ، وقوّتها.

وفي أيّام الآحاد كانت تجتاز مسافةً تربو عن كيلومترٍ ذهابًا، ومثلها إيابًا، كي تشارك في الذبيحة الإلهيّة، في قريةٍ مجاورةٍ، وتظفر بغذائها الروحيّ، فتعود أوفر طاقةً على مجابهة المهامّ اليوميّة.

وقد لحظ الجميع البراءة المتجلّية في عينيها الزرقاوين، والفرح المشعّ من محيّاها. وشهدت عجوزٌ عرفتها صغيرةً:

«لم تكن جميلةً، ولكنّها كانت لطيفةً وطيّبةً، ورقيقةً مع أترابها، حتّى عندما كُنّ يضايقنَها. وإذا لحظت خلافًا بينهنّ كانت تجهد في مصالحتهنّ، وإحلال السلام بينهنّ. وإذا التقت فقيرًا، كانت تهبّ لغوثه، وتجود عليه بكلّ ما تملك من حلوى. وفي الكنيسة كانت تصلّي مثل ملاكٍ، ولا تدير رأسها يمنةً ولا يسارًا».

وأكثر من اعتمادها التنظيم، كان اللّه، في كلّ شيءٍ مُعتَمدَها.

حلمٌ ودعوةٌ

في ربيعها الخامس عشر، شدّ كاترين الميلُ إلى الحياة الرهبانيّة. وأيّدتها شقيقتها الصغرى في هذا الاتّجاه. ورسّخ هذه الدعوة حلمٌ طاف بها، رأت فيه ذاتها ابنةَ ثمانية عشر عامًا، تصلّي في الزاوية المكرّسة للعذراء في كنيسة قريتها. ورأت كاهنًا شيخًا مرتديًا زيّه الكهنوتيّ يحتفل بالذبيحة الإلهيّة. وعندما التفت إلى الحضور كي يباركهم، حدّق إليها، فنفذت نظرته الفولاذيّة المتألّقة إلى أعماق نفسها، نظرةٌ لم يبارحها أسرُها، سحابة حياتها. وفي نهاية القدّاس أشار إليها أن تقترب منه، فاضطربت وارتعدت، ورجعت القهقرى، وعيناها مسحورتان بعينيه. ثمّ رأت نفسها تعود مريضًا، بعد القدّاس، فإذا بالكاهن الشيخ هناك، أيضًا، يقول لها:

– «إنّ العناية بالمرضى لأَمرٌ حسنٌ. أنت الآن تهربين منّي، ولكنّك ستسعدين، يومًا، بالمجيء إليّ».

تلاشى الحلم، ولكنّه كان لها زخمًا منيعًا، جعلها، منذئذٍ، تحيا في عالمٍ آخر. لم تهمل عملها اليوميّ، بل ثابرت على أدائه على وجهٍ أفضل من السابق. ولكنّه ما عاد يعني لها شيئًا، فقد نأت، بروحها، عنه.

أمّا حلم الترهّب الذي كانت تداعبه، فقد ظلّ، مدى سنواتٍ، سرًّا تقتسمه مع شقيقتها الصُغرى. ولمّا أماطت عنه القناع، سارع والدها وأشقّاؤها إلى معارضته. فوالدها كان قد قدَّم للربّ ابنته الكبرى، ووفّر لها الجهاز المطلوب، وخُيّلَ إليه أنّه، بذلك، أدّى واجبه حيال الله، وكفى.

كانت كاترين، حينذاك، في نهاية العقد الثاني من عمرها، متّزنةً، فرحةً، لا تتحرّج من المشاركة في الأعياد والاحتفالات التي تجمع شبّان قريتها والقرى المجاورة وشابّاتها، وكان قد تقدّم لخطبتها عددٌ من شبّان الأُسر المحترمة.

بيد أنّ مشروع الرهبنة كان قد أضحى محور حياتها كلّها. وفطنت إلى أنّ دخول ديرٍ يقتضي معرفة القراءة والكتابة، فأدّت كلّ مدّخراتها، البالغة ثلاثين فرنكًا ذهبيًّا، إلى شخصٍ علّمها توقيع اسمها. ولكن، لم يكن ذلك كافيًا ليؤهّلها للانتساب إلى رهبنةٍ. وكانت شقيقتها الصغرى، التي بلغت السادسة عشرة، قد امتلكت من القوّة والكفاءة ما يمكنّها من احتلال مكانها في إدارة البيت والمزرعة، فلجأت إلى ابنة عمٍّ لها تمتلك مدرسةً داخليّةً في مدينة «شاتيّون»، كي تتلقّى مبادئ التعليم الأساسيّة. ولم يملك والدها مقاومتها، فقد كان خجِلاً من أمّيّة صغار أبنائه، في حين نال الكبار منهم قسطهم الوافي من العلم.

سعدت كاترين في «شاتيّون» بوجود كنيسةٍ قريبةٍ، تستطيع، فيها، المشاركة بالذبيحة الإلهيّة متى شاءت، وبوجود كاهنٍ جاهزٍ، في كلّ حينٍ، لاستقبالها. وأسرّت له بحلم الكاهن الذي خطر لها، وبالدعوة التي كانت تشدّها. ففسّر حلمها، بناءً على وصفها لذلك الكاهن:

– «أظنّ، يا ابنتي، أنّ هذا الكاهن هو القدّيس منصور».

وبعد أيّامٍ، زارت، مع قريبتها، دير «بنات المحبّة». ولدى مشاهدتها لوحةً تمثّل القدّيس منصور هتفت، دهشةً، مؤكّدةً أنّه الكاهن الذي تراءى لها في الحلم. فأوضحت لها راهبات الدير:

– «هذا هو أبونا القدّيس منصور دي پول».

وفيما كانت معالم دعوتها تتوضّح، وجذورها تترسّخ، كانت تبرز العوائق الحائلة دون تحقيقها، إذ لم يكن مفرٌّ من موافقة الوالد، والوالد كان عنيدًا في رفضه، لدواعٍ عاطفيّةٍ، واقتصاديّةٍ، وإداريّةٍ. وإن هي آثرت انتظار بلوغها السنّ التي تنعتق، فيها، من سلطة الأب، ومن ممانعته، فالمدّة التي تفصلها عن ذلك الأمد هي سنتان ونصْف السنة، وهذه المدّة كانت تبدو لها دهرًا.

وفضلاً عن ذلك كان يؤلمها أن تتابع دروسها مع فتياتٍ صغيراتٍ، لا يستسغن هندامها وسلوكها القرويَّيْن، اللذين يتباينان، تباينًا حادًّا، مع هندامهنّ وسلوكهنّ. وكان تنازلهنّ

في التعامل معها معاملة الزميلة، رغم فارق السنّ، يجرح أنفتها القرويّة الوطيدة. فاختصرت إقامتها في «شاتيّون»، واستعجلت الرجوع إلى البيت الأبويّ.

عادت كاترين إلى سابق عهدها من العمل الدؤوب، الصامد، المرهق، في المزرعة، فيما كانت نوازع الدعوة تشتدّ أسرًا، يومًا فيومًا.

في الثاني من أيّار ١٨٢٧ بلغت كاترين سنّ الحادية والعشرين، فأعلنت عن قرارها، واستشاط والدها غيظًا، مصرًّا على رفض التضحية بابنةٍ ثانيةٍ من بناته، وعلى ابتغائه مصيرًا أفضل لابنته الأثيرة كاترين. وفي هذا السبيل، لجأ، في ربيع عام ١٨٢٨، إلى مناورةٍ، آملاً أن يحلّ بها مأزقه. فقد كان لابنه «شارل» حانوتٌ لبيع الخمور في باريس، وكانت زوجته قد أسّست، بجانبه، مطعمًا شعبيًّا. ولكن المنيّة اختطفتها، وبات «شارل» بحاجةٍ إلى مساعدٍ. وارتأى والده أن يكلّف كاترين بهذه المهمّة، آملاً، في سريرة نفسه، أن يصرفها جوُّ باريس عن أحلامها الرهبانيّة، وأن يتمكّن أحد روّاد المطعم من اختطاف قلبها.

هذا القرار كان لكاترين جرحًا مزدوجًا. فهو صدمةٌ للمشروع الذي أخذ من قلبها كلّ مأخذٍ، وهو فراقٌ موجعٌ لمربع صباها ولأحبّائها. غير أنّ شعورها بالواجب جعلها تنهض بما كُلّفت به خير نهوضٍ، بحيث خطر لأخيها أن يزوّجها في باريس ويبقيها دائمًا إلى جانبه. ولكنّه، في الواقع، كان متعاطفًا مع صبوّها إلى الحياة المكرّسة، وتسنّت له فرصة مساعدتها على تحقيق هذه الرغبة، عندما تزوّج ثانيةً، في مطلع عام ١٨٢٩، ولم يكن بقدرته الاحتفاظ بامرأتين في بيتٍ واحدٍ ضيّقٍ.

واستغاثت كاترين بقريبتها، صاحبة المدرسة الداخليّة، في «شاتيّون»، وبشقيقتها الكبرى الراهبة، «ماري لويز»، التي كانت قد عُيّنت، منذ سنةٍ، رئيسةً لدير «بنات المحبّة» في «كاستلسارازان»، والتي ردّت برسالةٍ تضجّ تشجيعًا واندفاعًا، جاء فيها:

«ما هي «ابنة المحبّة»؟ هي عطاء الذات لله، بلا تحفّظٍ، من أجل خدمة الفقراء، أعضائه المتألّمة... الآن، إن عرض

عليَّ شخصٌ قادرٌ امتلاك لا مملكةٍ فحسبُ، بل كونٍ بكامله، لعددت ذلك مثل غبار حذائي، موقنةً أنّني لن أجد، في امتلاك كونٍ بأسره، السعادة والرضى اللّذين أونسهما في دعوتي... إنّ خدمة اللّه خيرٌ من خدمة العالم».

وفي رسالةٍ لاحقةٍ، نصحتها شقيقتها الراهبة بالعودة إلى مدرسة قريبتهما في «شاتيّون»، كي تتلقّن حسن التحدّث باللغة الفرنسيّة، والكتابة، والحساب، والتمرّس من التقوى، ومن محبّة الفقراء.

وفي هذه الأثناء، كانت قريبتها، صاحبة المدرسة الداخليّة، قد تزوّجت أخا كاترين الأكبر، فرحّبت بها، أجملَ ترحيبٍ. ولكنّ كاترين لم تكن مرتاحةً إلى جوّ تلك المدرسة، وإلى سلوك طالباتها الصغيرات، المغرق في تأنّقٍ زائفٍ لا تستسيغه العقليّة القرويّة. غير أنّ عزاءها كان يكمن في التقاء طائفةٍ من «بنات المحبّة». وكانت تجمع إحداهنّ، المدعوّة «ڤيكتوار سيجول»، بكاترين قواسم مشتركةٌ وثيقةٌ عديدةٌ، منها الأصول والطباع القرويّة، والشغف بالسيّدة العذراء،

والتعاطف مع الفقراء، وكون، لكلٍّ منهما، شقيقةٌ كبرى منضويةٌ إلى رهبنة «بنات المحبّة»... منذ لقائهما الأوّل أُخذت «ڤيكتوار» بإعجابٍ شديدٍ، وبمودّةٍ عميقةٍ لكاترين، وقد عبّرت، لاحقًا، عن مشاعرها هذه بقولها:

– «لم أعرف نفسًا بمثل براءة نفسها وطهرها».

وسرعان ما تبيّنت صدق وشدّة صبوّها إلى الحياة المكرّسة، وعدم ارتياحها إلى جوّ المدرسة الداخليّة، فتطوّعت لمؤازرتها، وكتبت إلى رئيسة «بنات المحبّة»:

– «أرجوكِ استقبليها (في الجمعيّة)، فما هي إلاّ براءةٌ وتقوًى. وليست مرتاحةً إلى جوّ المدرسة الداخليّة. إنّها فتاةٌ قرويّةٌ طيّبةٌ، من أولئك الفتيات اللواتي يرُقْنَ للقدّيس منصور».

ولكنّ الرئيسة أثارت اعتراض ضآلة زاد كاترين الثقافيّ، وارتأت أن تنكبّ، فترةً أُخرى، على اكتساب المزيد من التعليم، مستفيدةً من كون زوجة أخيها صاحبة واحدةٍ من أفضل المدارس سمعةً. ولكنّ الأُخت «ڤيكتوار» تبيّنت،

بوضوحٍ، أنّ تلك المدرسة الداخليّة ليست هي ما يناسب كاترين، ويفيدها، فانبرت لتلقينها كلّ ما يتعيّن عليها تعلُّمه، كي تنضوي إلى الجمعيّة.

أخيرًا، اقتنعت رئيسة الدير، ووافقت على استقبال كاترين التي أثلج صدرها هذا النبأ. وبقي عليها تخطّي عقبة الجهاز الذي تقتضيه الرهبانيّات من المنتسبات الجديدات، في حين كان والدها الذي لم يعد بوسعه معارضة دعوتها، مصرًّا على ألاّ ينفق فرنكًا واحدًا من أجل تجهيزها. فتطوّع شقيقها الأكبر وزوجته لتوفير كلّ ما يلزمها، في هذا السبيل، طالما ظلّ الوالد مقيمًا على موقفه الرافض.

في الرابع عشر من كانون الثاني عام ١٨٣٠، أصدر مجلس جمعيّة «بنات المحبّة» العامّ قرارًا بقبول كاترين، بالعبارات التالية:

«تقترح الأخت «كاندي» قبول الآنسة «لابوريه»، شقيقة الأخت الرئيسة في مركزنا بكاستلسارازان. إنّها في الثالثة والعشرين، وهي ملائمةٌ جدًّا لأوضاعنا، فهي شديدة الورع،

حسنة الطباع، شديدة المراس، ودؤوبةٌ على العمل، وفرحةٌ. وهي حريصةٌ على المناولة كلّ ثمانية أيّامٍ. لا غبار على أُسرتها، من جهة الأخلاق والاستقامة، مع رقّة حالها المادّيّة. هناك إلحاحٌ في طلب قبولها».

ولا ريب أنّ الإشارة إلى رقّة حالتها المادّيّة كان تمهيدًا للارتضاء بجهازٍ ضئيلٍ، وببائنةٍ أدنى من المبلغ المحدّد.

بتاريخ ١٨٣٠/١/٢٢، جاءت الموافقة على قبولها من مركز الجمعيّة في باريس. فودّعت كاترين أترابها ومعلّماتها، وطاب للأخت «ڤيكتوار» تولّي تدريب صديقتها على برامج الصلوات والحياة في الجمعيّة، بدءًا بإعداد قِدْر المرضى الفقراء، الذي كانت تُصلَح فيه، يومَيْ الأَحد والخميس من كلّ أُسبوعٍ، كمّيّاتٌ وفيرةٌ من الحساء، تنتظم طوابير المحتاجين والمتطوّعين للتزوّد بها، أو لإيصالها إلى المرضى. وهكذا شرعت كاترين تختبر عمق البؤس السائد، وحلاوة الخدمة.

ومنذ الأيّام الأولى، غدت صلاتها موضع إعجاب الجميع، بانتظامها وورعها. وفي منتصف شهر نيسان، انتهت

فترة الاختبار، المدعوّة «الطالبيّة»، واستقلّت كاترين، تواكبها راهبةٌ مسنّةٌ، عربةً أودعت فيها صندوق أمتعتها الضروريّة، ميمّمةً شطر مركز الجمعيّة الرئيسيّ، في شارع باك بباريس.

الإكليريكيّة

عادت كاترين إلى باريس في ظروفٍ تتباين، تباينًا جذريًّا، عن الظروف التي كانت قد جاءتها فيها، لسنتين خلتا. حينئذٍ، كانت منفيّةً، يوجعها الفراق عن مرابع صباها، وعن أحبّائها: الأب، والشقيقة، والأخ الأصغر؛ جاءت مكرهةً كي تخدم في مطعمٍ، بقصدٍ مُبيَّتٍ، قصد صرفها عن هوى عمرها، عن دعوتها الرهبنيّة. وها هي الآن تعود، وقد أزاح إيمانها جبال العقبات الكأداء، التي كانت تنهض في درب حلم حياتها. جاءت إلى مقرّ ذلك الوجه الفاتن، والنظر الساحر الذي كان قد أضرم، بين ضلوعها، نار دعوتها، القدّيس منصور دي پول.

لم تعدْ نادلةً في مطعمٍ تقدّم الأطباق والأقداح لثملين يتقيّؤون السخافات، والنكات المقذعة، بل جاءت كي

تغوص في لجّة الصمت، وتناجي أبًا سماويًّا، وأُمًّا فائقة الحنان، وتخدم أعضاء يسوع المتألّمة.

أُنذِرت بأنّ حياة الدير ستكون قاسيةً، ولكنّها، وقد نالت ما طالما صبت إليه لاهفةً، لم يعُدْ أيّ صعبٍ يخيفها أو تجفل دونه.

في مزرعة والدها كانت تسترق اللحظات كي تنصرف إلى الصلاة، وها هي في مكانٍ يتبوّأ فيه الله والصلاة المقام الأوّل، فيصبح عمل الخدمة مدفوعًا ومزيَّنًا بهما.

وبانتظار ذلك عكفت القادمة الجديدة على تعرُّف من سيكونون لها رؤساء، ومديرين، ومعلّمين، ورفاقًا.

الشعاران الأوّلان اللّذان تلقّنتهما هما:

– الله وحده. الله في الرؤساء، وفي الأخوات... الله في قلبنا كي يطهّره، وفي فكرنا كي ينيره، وفي أعمالنا كي يقدّسها.

– مريم العذراء المنزّهة من الدنس. هذا الاسم كانت

كاترين تتلفّظ به، بفرحٍ فائضٍ، يُشيع العدوى، وبثقةٍ تزحزح الجبال. فهي كانت تتوقّع، من عطف العذراء، ومن قدرتها، كلّ شيءٍ.

بعد كلّ ما خبرت ورأت حتّئذٍ، كانت مرحلة الابتداء لها ولوجًا إلى الحياة الحقّة، كانت السماء على الأرض، والنور الذي يضيء الحقيقة الخالدة.

حدَثٌ جَلَلٌ
يتزامن ووصول كاترين إلى شارع باك

منذ وصولها إلى شارع باك، في ١٨٣٠/٤/٢١، أُنبئت كاترين باقتراب موعد عودة جثمان القدّيس منصور من مثواه المؤقّت، إلى الدير الذي أصبح منزلها، فباتت تنتظر هذا الحدث بلهفةٍ، ونفسها سابحةٌ في سماءٍ من البهجة والاندفاع عبّرت عنها بقولها: «بدا لي، حينذاك، أنّني انسلخت عن كلّ ما يقيّدني بالأرض». ومع ذلك كانت يداها دائبتين على العمل الوضيع.

وسرعان ما أَلِفت وتيرة حياة الدير القاسية، ولم تجد مشقّةً في الاستيقاظ باكرًا، إذ كان ذلك ديدنها في مزرعة والدها. فكانت تهبّ ناهضةً، كلّما قُرع الجرس، في الساعة الرابعة صباحًا، وانطلق نداءٌ يقول:

– «باسم اللّه، يا أخواتنا، انهضنَ، لطفًا».

فتجيب، بفرحٍ، مع زميلاتها:

– «فليُبارَك اسم اللّه المقدّس!»

وبعد نصف ساعةٍ، يُستهلّ النهار بالتأمّل، وبطائفةٍ من الأدعية من أجل الخطأة، وأصحاب مختلف الاحتياجات، ثمّ يتمّ تبادل الإلهامات البنّاءة. بعدئذٍ يُباشَر بتأدية المهامّ اليدويّة اليوميّة. وبما أنّ كاترين كانت قرويّةً متينة البنية، فقد أُسندت إليها مهامّ شاقّةٌ، مثل كنس الساحات والممرّات، وغسل الطناجر والقدور. ثمّ كانت تعكف بجدٍّ على تلقّي دروسٍ تطوّر بها تعليمها الأساسيّ.

في الساعة السابعة كان يُحتفَل بالقدّاس، وقوفًا، يليه إفطارٌ صامتٌ قوامه حساءٌ رقيقٌ، وخبزٌ جافٌّ.

في الثامنة تلقي مديرة الابتداء دروسًا في العقيدة المسيحيّة، مستوحاةً من الإنجيل، تليها أعمالٌ يدويّةٌ خفيفةٌ مثل الخياطة، وكيّ الملابس والملاءات، وتقشير الخضار، تواكبها أحاديث تقويّةٌ جادّةٌ، وتُختتم فترة الصباح بغداءٍ يبدأ

بصلاةٍ قصيرةٍ، وترافقه قراءة نصوصٍ روحيّةٍ، وتلاوة مقطعٍ من سِيَر القدّيسين.

ظهرًا تُتلى صلاة التبشير، وبيتٌ من المسبحة، ثمّ تنعم الراهبات بفترة استراحةٍ ومحادثةٍ، تستغلّها بعضهنّ لإنجاز بعض الأعمال الطفيفة.

فترة بعد الظهر تبدأ، في الثانية، بحديثٍ آخر، تذكّر فيه المرشدة بتعاليم المؤسّس، القدّيس منصور دي پول، ولا سيّما عن الخدمة، ومحبّة الفقراء، اللّتين تستلزمان التواضع، والعطف، والبساطة، وروح البذل، وقد أَوجز القدّيس منصور هذه كلّها بقوله: «علينا أن نرى في الفقراء أسيادنا ومعلّمينا، والاعتراف بفضلهم علينا. ينبغي أن تقوم تقوانا على النهوض بواجباتنا حيال الفقراء، معلّمينا الأعزّاء، غير مهملين أيّ شيءٍ قد يؤدّي إلى تخفيف معاناتهم... وحريصين على تلقينهم مبادئ إيماننا الأساسيّة، لكي يحيوا حياةً فاضلةً، ويموتوا ميتةً صالحةً».

أمّا تعليم القدّيس منصور الموجّه إلى «بنات المحبّة»، فقد

أوجزه بقوله: «فلتكن صومعتهنّ غرفةً مستأجرةً، وديرهنّ طرقات المدينة، وغرف المشافي، ولتكن الطاعة حَرَمهنّ، وخوف الله حاجزهنّ، والحشمة قناعهنّ. وحيثما كنّ بين الناس، فليتّسم سلوكهنّ بمثل ما يتّسم سلوك الراهبات، في أثناء رياضاتهنّ الروحيّة، من طهر قلبٍ وجسدٍ، وتجرّدٍ عن المخلوقات، وقدوةٍ للآخرين».

أمّا ساعات ما بعد الظهر، في الدير، فكانت توقف على السجود، والتأمّل، والعمل اليدويّ. ويُختم النهار بعشاءٍ تليه فسحةٌ، وبفحص الضمير، وصلاة المساء، وفي الساعة التاسعة مساءً تُطفأ الأنوار. وتكون كلّ راهبةٍ قد انتهزت كلّ برهةٍ سانحةٍ لتلاوة المسبحة، ومطالعة موضوع تأمّل صباح الغد. أمّا في أيّام الآحاد، فيُستعاض عن الأعمال اليدويّة، بمطالعاتٍ بنّاءةٍ، وتتدرّب الراهبات على تلقين مبادئ الإيمان المسيحيّ للفقراء الذين لم تسنح لهم فرصة تلقّنها، ويكرَّس، من كلّ شهرٍ، يومٌ لخلوةٍ صامتةٍ حافلةٍ بالصلاة والتأمّل. وتلوِّن المواسم الكنسيّة، والأعياد الكبرى، حياةَ الدير، بصبغتها الخاصّة.

في ذلك الزمن، كان دير «بنات المحبّة»، في شارع باك بباريس، يضمّ مئةً وخمسين راهبةً، منهنّ ثمانون مبتدئةً. وقد دُوِّنت، عن كاترين، في سجلّ الجمعيّة، الملاحظة التالية: «متينة البنية، متوسّطة القامة، تعرف القراءة والكتابة لذاتها. ذهنها وحكمها ليسا بارزين. لديها تقوًى، وتجهد في اكتساب الفضائل». فقد أَلِف اللعازريّون تقييم الآخرين بالحدّ الأدنى من التقدير.

وأخيرًا، في الخامس والعشرين من شهر نيسان ١٨٣٠، حظيت كاترين، ولم يكن قد مرَّ سوى ثلاثة أيّامٍ على وجودها في دير «بنات المحبّة»، بشارع باك، بفرصة استثنائيّةٍ وثمينةٍ، إذ أُعيد إلى ذلك الدير جثمان القدّيس منصور دي پول، الذي كان قد أُبعِد عنه، وأُخفي، خشيةً عليه من تدنيس الثوّار. ولا مناص من التذكير بأنّ ترائي ذلك القدّيس لكاترين في الحلم، كان قد أضرم نار دعوتها، وكانت نظرته قد اخترقت كيانها، وحدّدت مصيرها. وجديرٌ، أيضًا، بالتنويه أنّ أيدي الفناء لم تكن قد طالت ذلك الجثمان، طيلة فترة بعاده.

ولا ريب أنّ ذلك الحدَث كان إشارةً دعّمت دعوة كاترين، وبثّت فيها حرارةً ودفعًا. وقد صلّت أمام جثمان قدّيس الفقراء، من أَجل الجمعيّات التي كان قد أَسّسها، والفقراء الذين بذل حياته في سبيل خدمتهم، والعالم أَجمع، ومن أَجل إنارة الدرب الجديد الذي انتهجته.

كاترين وقلب القدّيس منصور

كان تأثير القدّيس منصور على كاترين من العمق والشدّة، بحيث تراءى لها قلبه، ثلاث مرّاتٍ، وهي تصلّي أمامه، مصطبغًا بألوانٍ مختلفةٍ، تحمل رموزًا متعدّدةً. وقد روت هذه الظهورات على الوجه التالي:

«ظهر لي ثلاث مرّاتٍ، خلال ثلاثة أيّامٍ متعاقبةٍ.

مرَّةً كان أبيض، بلون البَشَرة، معلنًا السلام، والسجوّ، والبراءة، والوحدة.

وفي نوبةٍ ثانيةٍ، رأيته بلونٍ أحمر ناريٍّ، كفيلٍ بإضرام المحبّة في القلوب. وبدا لي أنّ على الجمعيّة بأكملها أن تتجدّد، وتمتدّ إلى أقاصي المسكونة.

ثمّ رأيته بلونٍ قانٍ، ضاربٍ إلى السواد، فبثّت هذه الرؤيا الحزن في قلبي، وانتابني أسًى يتعذّر عليّ احتماله...»

في الواقع، كانت هذه الرؤى رسائل مثقلةً بالمغزى. فاللون الأبيض كان يشير إلى التجدّد المطلوب من جمعيّةٍ كانت، عندما انضمّت إليها كاترين، تتعافى من محنةٍ موجعةٍ، خلّفت فيها آثارًا وبيلةً، من تراخٍ وتخاذلٍ لا بدّ من تجاوزهما في سبيل استعادة نضارة الرسالة الأصليّة. كانت رسالة رجاءٍ.

اللون الأحمر، في الرؤيا الثانية يرمز إلى نار الغيرة التي توخّى القدّيس منصور أن تلهب قلوب أبنائه، كي ينشروا رسالته في كلّ أرجاء المعمورة.

أمّا اللون القاني الضارب إلى السواد، والذي سرّب الأسى إلى قلب كاترين، فقد قرأت فيه إنذارًا بما سيحلّ بفرنسا من اضطراباتٍ ومآسٍ. وجديرٌ بالتنويه أنّ كاترين كانت تمتلك حدْسًا ثاقبًا يمكّنها من توقّع أحداثٍ سياسيّةٍ لا يتوقّعها السياسيّون المتمرّسون، أو هي تخطر لهم خطورًا خاطفًا.

على أيّة حالٍ، شعرت كاترين أنّها مكلّفةٌ برسالةٍ تتخطّاها، عليها أن تبقيها سرًّا بين السماء وبينها. غير أنّ دافعًا كمينًا حملها على البوح بهذا السرّ في كرسيّ الاعتراف، فكان ردّ فعل معرّفها سلبيًّا، إذ اكتفى بالردّ:

– «لا تصغي إلى التجارب. فمهمّة ابنة المحبّة هي خدمة الفقراء، وليست الاستسلام للأحلام».

لا ريب أَنّ خدمة الفقراء كانت آخذةً بكلّ فؤاد كاترين، ومع ذلك لم تجد تعارضًا بين هذه الخدمة، والرسالة التي شعرت، بقوّةٍ، أَنّها مكلّفةٌ بها. وقد اعترفت، لاحقًا: «لقد بعث فيّ معرّفي الطمأنينة بقدر المستطاع».

ولكن هل من المستطاع إخماد النار التي يوريها اللّه في النفوس؟

فمنذ أَيّامها الأولى في الدير، غدت نفس كاترين مسرحًا لظواهر خارقةٍ حافلةٍ بالانخطافات والرؤى السماويّة، والرسائل الخلاصيّة.

ظهوراتٌ ورؤًى وانخطافاتٌ

بعد رؤى قلب القدّيس منصور، تسنّت لكاترين رؤية الربّ يسوع في القربان، أثناء القدّاس. فبغتةً، أصبحت القربانة شفّافةً، ومن خلالها، رأت الربّ يسوع. إلاّ أنّها تذكّرت، حينئذٍ، نصيحة معرّفها بمقاومة مثل هذه التجارب، وحاولت إقناع نفسها بأنّ ما تراه هو مجرّد وهمٍ. وخلال لحظات المقاومة هذه، استعادت القربانة منظرها الطبيعيّ. ولكنّها سرعان ما عادت تصلّي باندفاعٍ مستسلمةً لنفحات الروح، وعادت القربانة تميط اللثام عن محتواها الحقّ. لم يكن الأمر حلمًا، ولا هوَسًا، أو نتيجة إثارةٍ، بل كان ولوجًا صوفيًّا إلى واقعٍ سامٍ.

هذه الرؤيا غدت تتكرّر كلّما صلّت أمام القربان، ما خلا في اللحظات التي كان يساورها الشكّ في أثنائها، مثلما

حدث، قديمًا، للقدّيس بطرس، الذي سار فوق اليمّ، طالما ظلّت عيناه شاخصتين إلى يسوع، وطالما ظلّ قلبه مفعمًا إيمانًا به، ولكنّه شرع يغرق حالما راوده الشكّ.

وعبثًا حاولت كاترين إقناع معرّفها بصحّة هذه الرؤى، فيما استمرَّت السماء تبعث إليها بإشاراتها، بلا هوادةٍ.

كانت سعيدةً في الدير، وكأنّها في إحدى ضواحي الفردوس، وفي الآن عينه، كانت دائبةً على تكنيس الممرّات، وغسل الأطباق والقدور. بيد أنّها فوجئت، ذات يومٍ، في أثناء الغداء برؤيا انتزعتها من العالم، فأنّبتها إحدى المديرات، ظانّةً أنّها شاردة الذهن، قائلةً:

– «ما بك، أيّتها الأُخت لابوريه، هل ألمّ بك انخطافٌ؟»

كان قولها ينطوي على شيءٍ من اللوم، والتهكّم، تقبّلته الراهبة المبتدئة بتواضعٍ وبساطةٍ، وعادت تلتهم طعامها، وكأنّ شيئًا لم يحدث.

ظهور العذراء

ذات يومٍ أَهدت إِحدى رئيسات الدير كلاًّ من أَخواتها قصاصةً من الثوب الذي كان القدّيس منصور يرتديه، في أَثناء القدّاس. وبكلّ براءةٍ، شطرت كاترين قصاصتها إلى قسمين صغيرين، ابتلعت أَحدهما قبل أن تخلد إلى النوم، راجيةً أن ينال لها القدّيس منصور نعمة رؤيا السيّدة العذراء، ولا سيّما أنّ إِحدى الراهبات المرشدات، كانت قد تحدّثت، في ذلك المساء، عن شَغَف القدّيس منصور بالسيّدة العذراء، وعن كَلَفه بتكريمها. وكانت كاترين قد تلقّفت هذا الحديث بنهمٍ. وليلة ١٩/١٨ تمّوز ١٨٣٠، حقّق لها شفيعها القدّيس ما تمنّته، وروته كما يلي:

«أخيرًا، في الساعة الحادية عشرة والنصف ليلاً، سمعت من يناديني باسمي:

– «أُختي، أُختي!».

«استيقظت، وسحبت الستارة، ونظرت إلى جهة مصدر الصوت، فرأيت ولدًا بلباسٍ أبيض، له من العمر أَربعٌ إلى خمس سنواتٍ، قال لي:

– «انهضي سريعًا، وتعالي إلى المصلّى، حيث تنتظرك السيّدة العذراء».

«وجال، حينئذٍ، في خاطري: «ولكنَّهم سيسمعونني».

«غير أنّ الولد، الذي قرأ خفايا خاطري، ردّ عليّ:

– «اطمئنّي، فالساعة هي الحادية عشرة والنصف، والجميع نيامٌ. تعالي. أنا بانتظارك».

«ارتديت ملابسي على عجلٍ، واتَّجهتُ صوب الولد، الذي لبث واقفًا، ولم يتخطّ مقدّم سريري. تبعني، أو بالحريّ تبعته، وهو ما برح إلى يساري، ناشرًا أَشعة نورٍ حيثما مرّ. كانت الأنوار تشتعل تلقائيًّا في كلّ مكانٍ نجتازه، وقد أَدهشني ذلك جدًّا. وتفاقمت دهشتي عندما دخلت إلى

المصلّى...، إذ فُتِح الباب حالما لمسه الولد بطرف إصبعه. وبلغت دهشتي أوجها، عندما رأيت جميع الشموع والشمعدانات مضاءةً، وكأنّنا في قدّاس منتصف الليل. غير أنّني لم أكن أرى السيّدة العذراء. واقتادني الولد إلى الحرَم، إلى جانب كرسيّ المدير، حيث ركعتُ، فيما لبث الولد واقفًا.

«كم بدا لي الوقت طويلاً! كنت أتلفّت مستطلعةً مرور الراهبات الساهرات. وأخيرًا أزفت الساعة، وأنذرني الولد، قائلاً:

– «ها هي ذي السيّدة العذراء!».

«وسمعتُ ما يحاكي حفيف ثوبٍ حريريٍّ، قادمًا من جانب الرواق، بقرب لوحة القدّيس يوسف. كانت آتيةً لتقف على درجات الهيكل، من جهة الإنجيل، على مقعدٍ يشبه مقعد القدّيسة حنّة. لكن لم تكن القدّيسة حنّة هي الجالسة على المقعد، بل القدّيسة العذراء ذاتها... وقال لي الولد:

– «ها هي ذي العذراء القدّيسة!».

«يتعذّر عليّ وصف ما انتابني في تلك اللحظة، وما داخلني من مشاعر...

«حينئذٍ كلّمني الولد، ولكنّ كلامه لم يكن كلام ولدٍ، بل كلام رجلٍ، كلامًا قويًّا، بعباراتٍ بالغة القوّة. فرمقت السيّدة العذراء، وقفزت نحوها، وجثوتُ على درجات الهيكل، وأسندتُ يديّ على ركبتيها.

«عهدتُ، آنذاك، أعذب لحظةٍ في حياتي. وإنّه ليتعذّر عليّ وصف ما انتابني من شعورٍ. وقد أرشدتني العذراء إلى طريقة تصرّفي مع مرشدي، وإلى أمورٍ كثيرةٍ أُخرى، لا يجوز لي البوح بها، وإلى أُسلوب مواجهة مصاعبي.

«وأشارت لي العذراء، بيدها اليُسرى، إلى أقدام الهيكل، حيث يجب عليَّ أن أطّرح، وأسكب قلبي، فأنال كلّ ما أحتاج إليه من تعزياتٍ. واستفسرتها عن معنى كلّ ما رأيت... ففسَّرت لي كلّ شيءٍ.

«لست أدري كم من الوقت استغرق ذلك. كلّ ما أعرفه هو أنّه، عندما غابت العذراء، لم ألمح سوى نورٍ ينطفىء،

وطيفٍ يتّجه صوب الرواق، من حيث كانت العذراء قد أتت. فنهضتُ من فوق درجات الهيكل، وقال الولد الذي وجدته حيث كنت قد تركته: «لقد رحلت».

«ورجعنا من الطريق عينه الذي كان ما زال مضاءً. وما انفكّ الولد يسير إلى يساري. أَظنّ أنّه ملاكي الحارس، الذي ظهر لي كي يريني السيّدة العذراء، لأنّني صلّيت كثيرًا كي يظفر لي بهذه النعمة، وكان يتألّق نورًا...

«لمّا عدتُ إلى سريري كانت الساعة تشير إلى الثانية صباحًا. ولم يجد النوم إلى عينيّ سبيلاً».

بعد مرور أَربعين سنةً على الحدث، أَدلت كاترين بتفاصيل عمّا أَدلت به العذراء:

«يا ابنتي يريد الله أن يكلّفكِ برسالةٍ.

«ستواجهين مشقّاتٍ جمّةً، ولكنّك ستتخطّينها، بقناعتك أَنّك تعملين لمجد الله. وستتبيّنين ما هو آتٍ من الله. لن تعهدي الراحة حتّى تُطلعي، على ذلك، المسؤولَ عن إرشادك. ستواجَهين بالمقاومة، ولكنّك ستنالين النعمة،

فلا تخافي. بلّغي كلّ ما يحدث لك بثقةٍ وبساطةٍ. ولا تخافي. ستشاهدين أشياءَ، فأطلعي المسؤولين عمّا سترين، وعمّا ستسمعين...

«في أثناء صلواتكِ وتأمّلاتكِ، ستنالين إيحاءاتٍ، فبلّغيها. بلّغي كلّ ما أقوله لك، وكلّ ما سترين في تأمّلاتك.

«ستحلّ أوقاتٌ عصيبةٌ، وستنزل مصائب على فرنسا، حيث سيُطاح بالعرش. وستهزّ العالمَ أجمع رزايا من كلّ لونٍ. (استولى حزنٌ شديدٌ على العذراء، وهي تدلي بهذا القول). **ولكن تعالي وارتمي عند أقدام هذا الهيكل. هنا ستُسكَب النعَم على جميع من يلتمسونها بثقةٍ وحرارةٍ: كبارًا كانوا أو صغارًا. وستُسكَب النعَم، خاصّةً على من يلتمسونها...»**.

وعبّرت العذراء عن أَسَاها بسبب ما انتاب أَعضاء جمعيّتَيْ القدّيس مَنصور من تراخٍ في الممارسات التقويّة، وطالبت بإبلاغ المسؤولين واجب التقيّد بالنظام، والسهر على تجنّب القراءات الضارّة، وهدر الوقت، والزيارات النافلة. وتنبّأت

العذراء بأنّه، عندما يغدو النظام محترَمًا، ستنضمّ إلى الجمعيّة جمعيّةٌ أُخرى. ومع أنّ هذا الأمر غير مألوفٍ، إلاّ أنّ العذراء راضيةٌ عنه، ولذلك سيتحقّق، وسيبارك اللّه الجمعيَّتين كلتيهما، اللتين ستنعمان بسلامٍ راسخٍ.

وحذّرت العذراء من مصائب كبرى، ولكنّها أكّدت حماية اللّه، والقدّيس منصور لجمعيّاته، ومن ثمّ دعت إلى الاطمئنان، ونبذ الخوف.

وغُصَّت العذراء، وكان صوتها يختنق، وهي تنبىء بأنّ الصليب سيُمتهن، وسيُرمى أرضًا، وتسيل الدماء، وسيُطعن، من جديدٍ، جنبُ الربّ، ويجرَّد رئيسُ الأساقفة من ثيابه... وسيعمّ العالمَ الحزنُ...

كانت دموع العذراء تنهمر، وهي تدلي بهذه النبوءات القاتمة، وحزنٌ سحيقٌ يرتسم على محيّاها. غير أنّ نبوءاتٍ مشرقةً تلت تلك النبوءات القاتمة، منها: تأسيس جمعيّة أبناء مريم، والاحتفال بالشهر المريميّ، وبشهر القدّيس يوسف وتكريم القلب الأقدس.

بلّغت كاترين معرّفها الرسالة التي كُلّفت بها، ولكنّ المعرّف رأى فيها أوهامًا وأضغاث أَحلامٍ. لا ريب أنّه كان يعي ضرورة إصلاح الجمعيّة. غير أنّه استهجن تدخّل تلك الراهبة المبتدئة بشأنٍ لا يعنيها. أمّا الكوارث التي تنبّأت بها الزائرة السماويّة فقد استبعدها. ولكنّ الثورة ما لبثت أن نشبت، وجرّت مواكب من الأهوال، كانت تحقيقًا لما حذّرت العذراء منه. ومع ذلك ظلّت أسرة القدّيس منصور بمأمنٍ، وفقًا لتطمينات الأمّ السماويّة.

وقد علّق «جان غيتّون» على ذلك الظهور بقوله: «في غضون لحظاتٍ، اخترقت كاترين الحجاب، وولجت العالم السماويّ، فرأت ما لم ترَه عينٌ بشريّةٌ، وسمعت ما لم تسمعه أُذنٌ. فاكتسبت العبارات المألوفة التي وصفت بها رؤاها معاني أوفر كثافةً وروعةً. ولجت ذلك العالمَ الفائق، المندمج بعالمنا، ولكنَّها لم تُخدَع، ولم تكن ضحيّة أوهامٍ. فاستفسرت، واستوضحت، وكأنّها تخشى أن تُخدَع، وتَخدع الآخرين. تلك المرأة، التي سبق لها أن أدارت مزرعةً بحنكةٍ وتيقّظٍ، ظلّت راسخة القدمين على الأرض، وميّزت بوضوح بين

الحلم واليقظة، وحسبت حسابًا لردود فعل أخواتها، وميّزت التباين بين ملامح العذراء التي سبق لها أن شاهدتها مرسومةً على لوحةٍ، وتلك التي شاهدتها، حيّةً، بأمّ عينيها. وما عتّمت أن أكّدت الرؤى والسمع باللمس، عندما ارتمت على ركبتي العذراء. وظلّت تلك القرويّة متيقّظةً لكلّ التفاصيل».

رؤيا الإيقونة

رؤيا كاترين للعذراء شحذ لديها توقًا مقيمًا إليها، ورغبةً عارمةً في مشاهدتها مجدّدًا. وكانت موقنةً، في قرارة نفسها، أنّ رغبتها ستتحقّق، وأنّ السيّدة العذراء ستظهر لها، بكلّ سناها.

وقد تمّ لها ذلك، حقًّا، في غروب يوم ١٨٣٠/١١/٢٧، في الساعة الخامسة والنصف مساءً، في أثناء الصلاة. لم يكن حلمًا، بل كان رؤيةً حيّةً، نقلها معرِّفها، وفقًا لما روته، هي نفسها، له، فقال:

«رأت الأُخت المبتدئة، أثناء الصلاة، لوحةً تمثّل العذراء القدّيسة، كما هي تُمثّل، عادةً، تحت عنوان الحبل بلا دنس، منتصبةً على قدميها، وباسطةً ذراعيها، مرتديةً ثوبًا أبيض، ومعطفًا ذا لونٍ أزرق ضاربٍ إلى الفضّيّ، ومتلفّعةً

بحجابٍ بلون الفجر. من يديها كانت تنبعث حزم أشعّةٍ، تتألّق تألّقًا فاتنًا. وفي الآن عينه، سمعتْ صوتًا يقول:

– «هذه الأشعّة ترمز إلى النِعَم التي تحصل عليها مريم من أجل البشر».

«ورأت كاترين لوحةً شبه بيضاويّةٍ تتكوَّن حول السيّدة العذراء، وقرأَت على حواشي اللوحة، مكتوبةً بحروفٍ ذهبيّةٍ، الدعاء التالي:

– «**يا مريم التي حُبِل بها بلا دنسٍ، صلّي لأجلنا نحن الملتجئين إليك**».

بعد لحظاتٍ، قُلبت اللوحة، وعلى جانبها الآخر تبيّنت حرف M، يعلوه صليبٌ صغيرٌ، وتحته رأت قلبي يسوع ومريم. وبعد أن تأمّلت كلّ ذلك، قال لها الصوت:

«**ينبغي سكّ إيقونةٍ وفقًا لهذا النموذج، والذين يحملون هذه الإيقونة التي تهب الغفران، ويتلون هذه الصلاة، سينالون من أُمّ اللّه حمايةً خاصّةً**».

هذا ما دوَّنه معرِّف كاترين، لاحقًا، بعد ثبوت صحّة كلّ ما بلّغته، مع أنّه، حين تبليغها، استنكر وقوعها، ثانيةً، ضحيّة أوهامٍ، وردّ بجفاءٍ:

– «إنّه لوهمٌ محضٌ. فإن ابتغيتِ تكريم سيّدتنا العذراء، فعليك التمثّل بفضائلها، واحذري الانسياق وراء الخيال».

ورغم قسوة الصدمة، انسحبت كاترين من كرسيّ الاعتراف، هادئةً، مسيطرةً على نفسها، تدعمها النعمة التي وعدتها بها السيّدة العذراء. لقد بلّغت واطمأنّت نفسها، ولم يبقَ لها سوى طاعة مرشدها.

وقد أوضحت كاترين نفسها، لاحقًا، أنّ العذراء، في ظهورها، كانت معتدلة القامة، وكان محيّاها جميلاً جمالاً يتعذّر وصفه، وأضافت:

««كانت واقفةً عند مستوى لوحة القدّيس يوسف، مرتديةً ثيابًا حريريّةً بيضاء... وقدماها تطآن نصف كرةٍ... وفي يديها كرةٌ تمثّل الأرض. كانت يداها بمستوى معدتها، وتبدو مرتاحةً، محدّقةً إلى السماء... ومن خواتم يديها تنبعث أشعّةٌ

متفاوتة الطول... وفيما كنتُ أتأمّلها، خفضت العذراء نظرها، ورمقتني، وسمعتها تقول لي: «**هذه الكرة تمثّل العالم أجمع، وخاصّة فرنسا... وكلّ إنسانٍ على نحوٍ خاصٍّ**».

«لا أستطيع التعبير عمّا انتابني من شعورٍ، وعمّا شهدته من جمالٍ، وتألّقٍ، وأشعّةٍ نيّرةٍ... وسمعت العذراء تقول:

«**إنّي أُفيض هذه النعم على من يلتمسها**». وقد أفهمتني كم يروق لها أن تُرفَع لها الأَدعية، وكم هي سخيّةٌ حيال من يدعونها، وكم من النعم تهب من يلتمسونها، وأيّ فرحٍ يفعم قلبها وهي تهبها».

غير أنّ مرشد كاترين الروحيّ ظلّ، طويلاً، مقيمًا على الاستخفاف بكلّ ما بلّغته إيّاه الأُخت المبتدئة، وعلى تعنيفها، ودعوتها إلى التعقّل والواقعيّة كلّما ذكّرته برغبات العذراء، وبوعودها.

رؤيا ثالثةٌ وأخيرةٌ

إثر انقضاء نحو شهرٍ، وفي يومٍ من كانون الأوّل ١٨٣٠، لم تذكر كاترين تاريخه بالتحديد، وفي توقيت الظهور السابق، وفي المكان عينه، تسنّت لها أن ترى، ثانيةً، لوحة العذراء التي حُبِل بها بلا دنس، والإيقونة التي طالبت بسكّها. وكانت الأشعّة المنبعثة من أمّ الله، من الكثافة بحيث حجبت قدميها. وكرّرت أمّ الله قولها إنّ هذه الأشعّة ترمز إلى النِعم التي تحصل هي عليها لمن يلتمسونها منها.

هذه الرؤيا أفعمت قلب كاترين فرحًا وعزاءً، مع أنّ هذا الظهور كان بمثابة وداعٍ، إذ قالت لها العذراء: «**لن تريني بعد الآن. ولكنّك ستسمعين صوتي، في أثناء صلواتك وتأمّلاتك**».

مرَّةً أُخرى، كانت كاترين ممزّقةً بين واجب تبليغ رغبات

العذراء، والسعي إلى تحقيقها، وواجب الطاعة لمرشدها الروحيّ. وبما أنّ العذراء لم تستعجل تنفيذ مطلبها، فقد آثرت الراهبة المبتدئة الانصراف إلى واجب الطاعة.

ارتداء الثوب الرهبانيّ

يوم ١٨٣١/١/٣٠، انتهت فترة تأهّب كاترين، وعشرين زميلةً لها، وارتدين الثوب الرهبانيّ، في احتفالٍ بسيطٍ. وفي الغد، غادرت كاترين الإكليريكيّة، ومكثت، مؤقّتًا، في مستوصفٍ تديره «بنات المحبّة»، يقع على مقربةٍ من الإكليريكيّة، إذ كان معرّفها راغبًا في مواصلة مراقبته لها عن كثبٍ. في هذه الأثناء، كانت الحماية العجيبة التي نعمت بها مؤسَّسات القدّيس منصور، وبخاصّةٍ «بنات المحبّة»، قد أسهمت في نشر شائعاتٍ عن ظهور العذراء، ووعدها بتلك الحماية. وأُشيع أَنّ الأب «ألاديل» (Aladel)، مرشد كاترين قد بُلِّغ هذه الوعود. بيد أَنّ دور كاترين ظلّ طيَّ كتمانٍ محكمٍ. وكان كلّما زار ذلك الكاهن مكان إقامتها الجديد تتهافت عليه زميلاتها مستطلعاتٍ، جاهداتٍ في استكشاف

بعض أسراره. وكان هو دائم الخشية من أن يبدر من كاترين ما يهتك سرّها. غير أنّ حرصها الشديد على كتمانه قد أثار إعجابه، ورسّخ اقتناعه بنأيها عن كلّ سعيٍ إلى التظاهر. فعندما كانت زميلاتها يلتففن من حوله، ويمطرنَه بأسئلتهنّ واستفساراتهنّ، كانت هي تندسّ بينهنّ، وتشاركهنّ الأسئلة الفضوليّة، مبعدةً عن نفسها كلّ شبهةٍ. ومع أنّها لم تكن قد أَطلعت، بعدُ، معرّفها على رؤياها الثانية للإيقونة المطلوب سكّها، فقد أسهم موقفها المتيقّظ، وحرصها على التكتّم والامّحاء، في تسريب اليقين إلى نفس الكاهن بأنّ السيّدة العذراء هي التي تساعدها على كتمان سرّها.

في دار عجزة «أَنغين» (Enghein)

كُلّفت الأُخت كاترين بالخدمة في دارٍ للعجزة تابعةٍ لبنات المحبّة في «أَنغين»، وهي ضاحيةٌ فقيرةٌ جنوب شرقيّ باريس، حيث استقبلتها أربعٌ من أخوات الجمعيّة، وحيث كان ينتظر القادمة الجديدة رهطٌ من المسنّين الفقراء. وكان معرّفها، الأب «ألاديل» قد اقترح تعيينها في هذا المقرّ، حيث يتولّى مهمّة التعريف، كي يتمكّن من مواصلة مراقبة تلك الراهبة التي ثمّن فضائلها، وسلوكها اليوميّ، بيد أَنّ رؤاها كانت تقلقه.

وقد لاقى ذلك المقرّ الجديد، من نفس كاترين، رضًا وارتياحًا. فقد كان ملحقًا به بستانٌ يمتدّ على مساحة هيكتارين، فتسنّى لها بذل طاقاتها، واستغلال الخبرة التي اكتسبتها في مزرعة والدها، من أجل استثمار تلك الرقعة من الأرض، خير استثمارٍ، خدمةً للفقراء والمسنّين.

كانت كاترين ما زالت في الرابعة والعشرين، وخشي عليها مسؤولو الدير الاتّصال المباشر برجالٍ مسنّين، قد تسوِّل لبعضهم نفوسُهم التحرُّش بها. فكُلِّفت، بادئ الأَمر، بالعمل في المطبخ حيث برهنت عن مهاراتٍ اكتسبتها في إدارة مطبخ والدها، ثمّ في مطعم شقيقها في باريس، حيث كانت متطلّبات الزبائن تقتضي الإبداع. غير أَنّ ما عكّر فرحها، في هذه المهمّة، هو أَنّ الأُخت المشرفة على المطبخ، والتي كانت فيه رئيستها، والتي تميّزت بتجرّدها وتفانيها، كانت مغاليةً في التقتير، فلا تقدّم لنزلاء الدار، من المسنّين والعجزة، سوى الضروريّ الذي يبقيهم على قيد الحياة، على نقيض كاترين التي كانت، بفطرتها، تنزع إلى الجود بسخاءٍ على المحتاجين، بما يمتعهم ويفيض عن احتياجاتهم. وشكت أَمرها إلى معرّفها، الذي أَجابها، بلا تردّدٍ: «عليك احتمال هذه الرئيسة بصبرٍ».

وجهدت كاترين في العمل بهذه النصيحة، ولكنّ شيئًا، في قرارة نفسها، ما انفكّ يضجّ ويتوجّع بسبب حرمان المحتاجين ممّا قد يُدخل إلى نفوسهم الراحة والبهجة. هذا

الرفض الكمين كان يشيع، أحيانًا، في نفسها الريب في مدى ما انتهت إليه من فضيلةٍ. وفي الآن عينه كان لها دافعًا منيعًا كي ترتقي بالأوضاع المعيشيّة في ذلك المأوى، حيث كانت سابقاتها القادمات من المدينة يجهدنَ بلا طائلٍ. أمّا هي، فبفضل خبرتها في مزرعة والدها، طوّرت وضع المدجنة، وتربية الحمام، ثمّ أدخلت تربية الأبقار، كي تزوّد النزلاء بالغذاء الطازج، الصحّيّ، الوفير. كانت دائبةً على الإدارة، والتنظيم، وحماية مملكتها الصغيرة، يحدوها روح القدّيس منصور، الذي طالما تطلّع إلى تناول الرغيف الذي يستحقّه بعرق جبينه، والذي كتب، ذات يومٍ: «نحن نعيش من إرث يسوع المسيح، وعرَق الفقراء... وغالبًا ما تؤرّقني هذه الفكرة: يا لتعاستك! هل اكتسبت، بجهدك، هذا الخبز الذي ستتناوله، هذا الخبز الذي يوفّره لك جهد الفقراء؟!»

وكانت كاترين تخدم الفقراء، بجهدها في إنتاج ما يقيم أَوَدهم، ويصون صحّتهم، دائبةً على مضاعفته، يومًا فيومًا. وكان هذا الجهد يريح ضميرها، ويسعدها.

إقرار سكّ الإيقونة

الأعمال اليدويّة كانت تلتهم معظم وقت الأُخت كاترين. وكانت رؤى العذراء لها قد توقّفت، ولكنّ هاتفًا داخليًّا ما برح يدعوها، بإلحاحٍ، إلى تنفيذ الرسالة التي كُلِّفت بها. وأخيرًا، في ربيع عام ١٩٣١، وطّنت العزم على تلبية النداء الذي كان يؤرّقها. ولكنّ مرشدها ما انفكّ على موقفه من دعوتها إلى مقاومة ما ظنّه أوهامًا. ومرَّت فترةٌ ارتاحت فيها الأُخت، لأنّها بلّغت ما طُلِب منها تبليغه، واطمأنّ مرشدها إلى تقبّلها رفضه بخضوعٍ وسجوّ نفسٍ.

بيد أنّ الصوت الداخليّ لم يصمت، وازدادت حدّة تمزّق كاترين بين دعوتيْن متناقضتيْن، دعوة العذراء الملحّة إلى تنفيذ مطلبها، ودعوة المرشد إلى نبذ ما عدّه أوهامًا. هذا

التمزّق دام أَشهرًا. وأخيرًا، في الخريف، باحت كاترين للعذراء بشكواها:

– «إِنّ مرشدي يأبى الإصغاء إليّ.

– **ولكنّ المرشد هو خادمي، وسيخشى مقاومتي**».

هذا التأكيد جرّأ كاترين على إِعادة الكرّة. فبلّغت مرشدها:

– «إِنّ العذراء مستاءةٌ!».

تظاهر المرشد باللامبالاة، ولكنّ هذه الكلمات هزّت أَعماقه، وأَخذت تؤرّقه. فتساءل هل هو، حقًّا، خادمٌ سيّئٌ لتلك التي يطيب له أَن يدعوها «ملجأ الخطأة». وفي هذه النوبة أَفسح لكاترين مجالاً للتحدّث أَوسع ممّا أَلف سابقًا إفساحه. بيد أَنّه لم يُبدِ أَيّ تجاوبٍ، ولم يتفوّه بكلمةٍ توحي بأَمل تبدّلٍ في موقفه. ولكنّه حدّث بالأمر صديقه، رئيس جمعيّة الآباء اللعازريّين. وكان قد أَلمح له، سابقًا، عمّا تلقّته كاترين من تطمينات العذراء، بشأن مصير المؤسَّسات المنصوريّة. كانا، كلاهما، يتطلّعان إلى مستقبلٍ زاهرٍ لهذه

المؤسَّسات، ولكنّهما، كليهما، كانا يعيان ما تقتضيه الكنيسة من حذَرٍ حيال الظهورات. ومع ذلك، ارتأيا إخضاع الأَمر للرئيس العامّ الذي لم يُبدِ أيّة مقاومةٍ، لا بل أوضح لهما أَنّه عازمٌ على مقابلة رئيس أَساقفة باريس، ودعاهما إلى مرافقته، كي يعرضوا عليه، مجتمعين، هذه القضيّة، بين قضايا أُخرى عديدةٍ. وكانوا يتساءلون، في دخيلة ذواتهم، عمّا قد يكون موقف رئيس الأساقفة، الذي فاجأهم بترحيبه الحارّ، وباندفاعه إلى نشر عقيدة الحبل بلا دنسٍ، التي مكّنت مريم العذراء من إشعاع من هو شمس العدل، ولاسيّما أنّ سِفر الرؤيا قد وصفها بمرتدية الشمس. وقد أَدهشهم وأَسعدهم إعلان موافقته على سكّ الإيقونة، إذ ليس، في ذلك، ما يعارض الإيمان والتقوى، بل هو مدعاةٌ إلى تمجيد اللّه. التحفّظ الوحيد الذي عبّر عنه هو فصل سكّ الإيقونة عن رؤى كاترين، ريثما تصدر الكنيسة قرارًا بشأنها. ولذلك حرَّض على الاكتفاء بنشر تلك الإيقونة، وبعدئذٍ سيحكم على الشجرة من ثمارها.

مطالب لم تُنفَّذ

لم تعُد كاترين تشهد أيّة ظهوراتٍ، ولكنّها كانت تتلقّى رسائل وتُكلَّف بتبليغها، فتحرص على هذا التبليغ، مصرَّةً على واجب تنفيذ مطالب السماء، ما لم يُكرهها واجب الطاعة على الصمت.

فقُبيل ثورة عام ١٨٤٨، بلّغت معرّفها الأب «ألاديل» ضرورة نصب صليبٍ كبير في باريس، ليكون واقيًا روحيًّا من صواعق السماء، وقالت: «هذا الصليب سيُدعى صليب النصر، وسيحظى بتكريمٍ جمٍّ، وستحجّ إليه وفودٌ غفيرةٌ من فرنسا، ومن بلادٍ نائيةٍ. بعضهم يأتون بدافع التقوى، وآخرون بدافع الحجّ، وآخرون بدافع الفضول. وسيوفّر هذا الصليب حمايةً معجزةً؛ وكلّ من يزور باريس، سيقصده، قصدَه لتحفةٍ فنّيّةٍ. وقد فصّلت الأخت كاترين أبعاد الصليب

المطلوب، كما رأته، وإذ بها أَحجامٌ معتدلةٌ، بل متواضعةٌ، قياسًا إلى صلبانٍ أُخرى، طُلب نصبها في أَماكن مختلفةٍ.

طلبُها هذا لم يلقَ أُذنًا صاغيةً، وقد أَمرها معرّفها بألاّ تأتي على ذكره ثانيةً، فلم يبقَ لها من حيلةٍ سوى تدبيج الرسالة التالية: «أبتِ، للمرَّة الثالثة، أَطلب منكم نصب هذا الصليب، بعد استيحاء مشيئة اللّه، والعذراء القدّوسة، وأبينا الطيّب القدّيس منصور... ولكنّني أَلتزم بواجب الطاعة، ولن يساورني، أيّ قلقٍ، بعد الآن. وإنّي، بكلّ احترامٍ، ابنتك المكرّسة لقلبَيْ يسوع ومريم المقدّسيْن».

وجديرٌ بالتنويه أنّ معرّف الأخت كاترين لم يلحظ أنّ الصليب كان يحظى، عام ١٨٤٨، باحترامٍ شعبيٍّ عارمٍ، وأنّ الثوّار أَنفسهم طافوا، انتصارًا، بصليبٍ كانوا قد أنقذوه من النهب والتدنيس.

تصنيع الإيقونات

في مطلعِ شهر آذار ١٨٣٢، أخذ مشروع سكّ الإيقونات يتحقّق بتأنٍ، وحزمٍ، وتنسيقٍ وثيقٍ مع الأخت كاترين.

وتوافق ذلك مع تفشّي وباء الكوليرا في باريس، حاصدًا، في غضون شهر نيسان من ذلك العام، ما يناهز عشرين ألف ضحيّةٍ، ما أدّى إلى تباطؤ تصنيع الإيقونات. ومع ذلك استطاع الصائغ «ڤاشيت»، المكلّف بتلك المهمّة، من تسليم ألفٍ وخمس مئة قطعةٍ منها، في نهاية شهر حزيران. وقد أوصى رئيس أساقفة باريس الذي تلقّى النموذج الأوّل منها، بصنع تمثالٍ وفقًا لوصف الأخت كاترين، كي يُنصَب في مقرّه.

وتلقّت كاترين إيقونتها، مثلما تلقّت سائر الأخوات الأُخريات، بلا تمييزٍ. وكانت شديدة الحرص على تجنّب كلّ

إشارةٍ كفيلةٍ بفضح سرّها. ولكنّ سعادتها تخطّت كلّ وصفٍ، وهي تشهد مطلب العذراء واقعًا ملموسًا ماثلاً أمام ناظريها. ومع أنّ جميع تفاصيل الإيقونة لم تكن متوافقةً مع رؤياها، إلاّ أنّها سعدت بتحقيق الجوهريّ، أي نشر الدعاء الذي لقّنته العذراء، وإشعاع المنزّهة من الدنس، وإشارات الصليب، ورموز الحبّ الإلهيّ. فاقتصرت على تمنّي نشر الإيقونة، آملةً أن تتولّى العناية الإلهيّة تصحيح الأخطاء، وإكمال النواقص.

انتشار الإيقونة المذهل

في البدء، تولّت «بنات المحبّة» توزيع الإيقونة في منطقة باريس، وسرعان ما انتشرت أَنباء أَشفيةٍ من كلّ نوعٍ، وارتداداتٍ روحيّةٍ صاعقةٍ، بفضل تلك الإيقونة.

خلافًا لكلّ توقُّعٍ، فجّرت تلك الإيقونة حمَمًا من الارتدادات والأَشفية بحيث قيل عنها: «يبدو أَنّ ما من مرضٍ يقوى على مقاومتها». لقد أَطلقت موجة تقوًى طاغيةً، امتدّت إلى كلّ أَرجاء المسكونة، وتيّارًا جارفًا من الرجاء، والتحوّل الروحيّ، والسخاء، وأَمطرت فيضًا من النِعَم.

وكان توزيع الإيقونة يتمّ، حتّئذٍ، بمنأًى عن أَيّة إشارةٍ إلى الظهورات كما أَلمحنا سالفًا، إذ إنّ أَيّة نشرةٍ تتعلّق بظهوراتٍ كانت تستوجب موافقة السلطات الكنسيّة العليا، وهذه السلطات كانت ممعنةً في التشدّد والتحرّز بهذا الشأن، لعلمها

بما قد يرافق أَحداث الظهورات من مخاطر الأوهام والخداع، والالتباس، وانعدام التمييز، والمغالاة، وبكلّ ما قد يلحق بالسلطة الكنسيّة من أضرارٍ جسيمةٍ. ولذلك كان رئيس الأساقفة قد أَذن بسكّ الإِيقونة وبتوزيعها، مع مراعاة الإِمساك عن أيّ ذكرٍ للظهورات التي نعمت بها كاترين.

غير أنّ سرعة انتشار الإِيقونة واتّساعه، وما واكبه من معجزاتٍ أَطاحا بكلّ جهود التكتّم. فقد تهاطلت الرسائل حاملةً أخبار الأَشفية الروحيّة والجسديّة التي جرت بفضل تلك الإِيقونة التي وُصفت منذئذٍ، تلقائيًّا، «عجائبيّةً». وفي الآن عينه تدفّقت تساؤلاتٌ ملحّةٌ عن مصدرها.

وأخذت بخناق موزّعي الإِيقونة الحيرة والتجاذب بين واجب الردّ على تساؤلات القوم الملحّة، والامتثال لتعليمات الكنيسة. وقد حاول مستشار رئيس أساقفة باريس، الأب (Le Gaillou) حلَّ هذا الإِشكال، فأَصدر بتاريخ ١٨٣٤/٣/١٧، في إِطار نشرات «شهر مريم»، بيانًا شديد الاقتضاب، وممعنًا في الحيطة والتكتّم، استهلّه بهذه العبارة:

«في غروب عام ١٨٣٠، أطلعني شخصٌ على رؤيا أفاد أنّها خطرت له في أثناء الصلاة، ورأى فيها السيّدة العذراء، على شكل لوحةٍ...». ثم أورد بعض الأشفية التي حدَثت بفضل الإيقونة، والتي وصفها الأطبّاء بالحَدث العجيب.

وحينئذٍ قرَّر الأب «ألاديل»، مرشد الأُخت كاترين، إصدار إيضاحٍ، ملتزمًا مبدأ إغفال هويّات أبطال الحدث والكاتب، فأضاف إلى البيان المذكور تفاصيل تنير بعض جوانب الحدث. فبيّن أنّ «الشخص» المذكور في البيان هو الأخت M، وهي راهبةٌ مبتدئةٌ في باريس، تابعةٌ لإحدى الجمعيّات المكرّسة لخدمة الفقراء. وقد قلّل بيانه، ما استطاع، من التعابير المتحفّظة، وتجرّأ على التأكيد بأنّ الراهبة المذكورة قد رأت، في أثناء صلاتها، لوحةً تمثّل السيّدة العذراء، كما هي ممثّلةٌ في لوحات الحبل بلا دنسٍ. وقد حرص الأب «ألاديل»، قبل نشر بيانه هذا، على نيل موافقة الأخت كاترين على إذاعة ما أسرّت له به في كرسيّ الاعتراف، بهذا الشأن. وذكر في بيانه: «إنّ الشخص الذي نعم بهذه الرؤيا سمح بإطلاع النفوس التقيَّة عليها».

هذا البيان صدر بتاريخ ١٨٣٤/٨/٢٠، وطُبعت منه عشرة آلاف نسخةٍ، نفدت خلال شهرين، فطُبعت خمسة عشر ألف نسخةٍ، طبعةً ثانيةً، نفدت في أقلّ من شهرٍ واحدٍ، فصدرت طبعةٌ ثالثةٌ في خمسةٍ وثلاثين ألف نسخةٍ.

وقد أوردت الطبعات المتتالية أنباء أشفيةٍ عجيبةٍ حدثت في الولايات المتّحدة عام ١٨٣٦، وفي بولونيا عام ١٨٣٧، وفي الصين وروسيّا عام ١٨٣٨، وفي الحبشة عام ١٨٣٩. وفي ذلك العام كان عدد الإيقونات الموزّعة قد تخطّى عشرة ملايين نسخةٍ. فقد عهد انتشار تلك الإيقونة ازدهارًا مذهلاً إذ، حتّى نهاية عام ١٨٣٣، كان قد وُزِّع منها نحو خمسين ألفًا، وقفز هذا العدد، في نهاية عام ١٨٣٤ إلى خمس مئة ألفٍ، وقبل وفاة الأخت كاترين، عام ١٨٧٦، كان قد تجاوز مليار نسخة. ودأبت على سكّ هذه الإيقونات معامل كثيرةٌ، على نحوٍ شرعيٍّ أو غير شرعيّ. وكان الصائغ «ڤاشيت» المكلّف، أصلاً، بإصدارها، عاجزًا عن تلبية سيل الطلبات المتدفّقة عليه، بحيث لم يتّسع له وقتٌ لمقاضاة المقلّدين غير الشرعيّين.

وفاضت نفس الأُخت كاترين شكرًا للّه، إذ إنّ انتشار الإيقونة الذي تجاوز كلّ توقّعٍ، واكبه انتشارٌ مماثلٌ للأَشفية المعجزة، وللارتدادات التي غدت حديث العالم أَجمع، في كلّ مكانٍ، وولّدت نهضةً دينيّةً كانت الثورة قد جهدت في خنق مشاعرها، ودفن تقاليدها. لقد أمست الإيقونة كتاب الفقراء المقدّس، ودليلاً على حضورٍ صديقٍ، كلّيّ القدرة، حضور مريم، في نور يسوع، وظلّ الصليب، رمز الحبّ المتمثّل في قلبين منقوشين عليها.

ما طلبته أُمّ اللّه، عبر الأخت كاترين، في صمت الليل، لاقى تحقيقًا مدوّيًا فاق أكثر الأحلام جرأةً.

دعوى كاترين

انتشار رواية الرؤيا، وانتشار الإيقونة شحذا الفضول لمعرفة هويّة الراهبة صاحبة الرؤيا. غير أنّ كاترين ومعرّفها ظلاّ حريصين على التكتُّم بكلّ طاقاتهما. وربّما أدركت كاترين أنّ أخطر ما يواجه «الرائي»، وما يتعذّر عليه احتماله، هو البقاء على قيد الحياة بعد رؤياه. على أيّة حالٍ، هي آثرت الغوص في الإغفال، والكتمان المطلق، والصمت المطبق، حول ما أُعطيت من كراماتٍ.

يقول «جان غيتّون» بهذا الشأن: «لقد توغّلت كاترين الرائية في تكتُّمٍ مطلقٍ لم تحِدْ عنه. ولكأنّ نعمة فقدان الذاكرة بشأن رؤياها قد حلّت عليها.

«وفيما كانت الإيقونة تنتشر في كلّ أرجاء أوروبّا، بحيث سُكَّ منها عشرة ملايين نسخةٍ في غضون أربع سنواتٍ، وفيما

كان الشعب يصفها بالعجائبيّة بفضل ما كانت تحدثه من معجزاتٍ، كانت كاترين متواريةً. كان القوم يعرفون أنّها موجودةٌ في مكانٍ ما، وأنّها كانت إحدى «بنات المحبّة». وكانت بعض الفضوليّات من أولئك الأخوات الزميلات يتفحّصنَ وجوه الأُخريات، ويطرحنَ الأسئلة كي يتبينّ من هي تلك الأُخت، في حين كانت كاترين مغرقةً في النأي عن التميّز، والتظاهر، وفي الهدوء، واللامبالاة عندما يدور الحديث عن الأُخت المجهولة، بحيث لم يتوفّق أحدٌ إلى هتك سرّها، ما خلا بعض شكوكٍ لم تستند إلى دليلٍ. فلا رئيس أساقفة باريس الذي أَوعز بسكّ الميداليّة، ولا محقّقو عام ١٨٣٦ تمكّنوا من إماطة نقاب الكتمان عنها، وامتلكوا حكمة الإحجام عن المطالبة بهذه الإماطة. فظلّ العثور على هويّة الرائية مستعصيًا، واستمرّ لغزها قائمًا حتّى وفاتها في ١٨٧٦/١٢/٣١».

وجديرٌ بالتنويه أنّ رئيستها في مأوى «أنغين»، الأمّ «دوفيس»، التي عاشت معها ستّ عشرة سنةً، في ذلك المأوى، لم تميّزها، ولم تتحرَّج من معاملتها بقسوةٍ، لا بل

بظلمٍ أحيانًا، كما يحدث غالبًا في الأُسَر الرهبانيّة.

في هذه الأثناء، كان عددٌ من الأساقفة والكرادلة قد تبنَّوا الإيقونة، بعد أَن تبيّنوا ثمارها. واتّضحت ضرورة إصدار قرارٍ كنسيّ يعترف بالظهورات. ومثل هذا القرار يستلزم دعوى، والدعوى تستوجب شهودًا، والشاهد الأساسيّ في هذه القضيّة هو الأُخت كاترين التي ما برحت ملتزمةً الكتمان، بحيث إنّ رئيس الرهبنة نفسه كان يجهل هويّتها.

وقد طلب رئيس الأساقفة الاستماع إليها، حتّى وهي مقنّعةٌ، فلا يُماط القناع عن هويّتها. ولكن حتّى هذا الطلب قابلته الأُخت كاترين بالرفض، مثلما قابلت، أَيضًا، برفضٍ حازمٍ، كلّ محاولات مرشدها لإقناعها بالمثول أَمام السلطات الكنسيّة المسؤولة، الراغبة في استجوابها.

وفي مطلع عام ١٨٣٦ أعلن الأب «ألاديل» مرشدها: «أمرٌ مدهشٌ: الآن أَمست هذه الأُخت لا تذكر شيئًا عن ظروف رؤياها. وبالتالي، كلُّ محاولةٍ للحصول منها على معلوماتٍ تبدو نافلةً، لا طائل تحتها».

وبفطرتها القرويّة، كانت كاترين تردّ على كلّ استفسارٍ لا تستسيغه بقولها: «لم أَعد أذكر شيئًا». وقد فسّر البعض موقفها بطلب العذراء منها أن تكتم السرّ. وربّما آثر مرشدها ألاّ يفسح مجالاً لماحكاتٍ عقيمةٍ قد تسيء، في نهاية المطاف، إلى النهضة الروحيّة التي ولّدها الحدث، وهي في قمّة انطلاقتها، وخشيَ أن تُشلّ مسيرة كاترين المكرّسة لخدمة الفقراء، من جرّاء وقوعها في أَشداق الإِعلام.

وقد أَعلن مرشدها أَنّ نفور كاترين من المثول أَمام القضاة الكنسيّين، ناجمٌ عن تواضعها. وكان تواضع كاترين ينطوي على قدرٍ وافرٍ من الحذر والواقعيّة.

كلّ هذه العوامل دفعت إلى السير بالدعوى الكنسيّة «غيابيًّا»، وإلى الاكتفاء بشهادة مرشد الأُخت، الذي أوجز وصفه لها بقوله: «إنّها شديدة الورع والتقوى، موغلةٌ في البساطة في كلّ مواقفها، حتّى في ورعها وعبادتها. حياتها طاهرةٌ، وتتّسم بتكريمٍ خاصٍّ للسيّدة العذراء. خيالها هادئٌ لا جموح فيه».

وفي شهادته أَمام اللجنة الكنسيّة قال: «في الريف، لم تتلقَّ سوى ثقافةٍ زهيدةٍ، وهزيلةٍ. لا شيء خارقَ فيها. تقواها بسيطةٌ ومستقيمةٌ. لم تتظاهر، يومًا، بتكريمها للسيّدة العذراء تظاهرًا لافتًا. ومع ذلك، عُهد عنها إيلاؤها السيّدة العذراء ثقةً كبرى. لا أثر لهَوسٍ لديها. بل هي، على نقيض ذلك، تبدو باردةً جدًّا، إلى حدّ البلادة».

خدمةٌ مستمرَّةٌ

فيما كانت الأَحداث تتفاعل، ظلّت الأُخت كاترين غير عابئةٍ بما يثار حولها، عاكفةً على أعمال الخدمة الوضيعة.

كانت، حتّئذٍ، عاملةً في المطبخ، جاهدةً في تقديم أَوفر طعامٍ وأَطيبه للمسنّين، كلّما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، وكلّما أَفلتت من رقابة الأُخت المكلّفة بإِدارة المطبخ، والممعنة في التقتير. وكانت تؤلمها رؤية أولئك العجزة يُحرَمون ممّا يحتاجون إليه، وممّا يستسيغونه. هذه المحنة دامت نحو ثلاث سنواتٍ. وأخيرًا تبيّنت الأُم الرئيسة ما كانت تعانيه هذه الأُخت السخيّة، فأَنهت محنتها، وأَسندت إِليها، بديلاً عن المطبخ، مهمّة الغسيل، وما يتعلّق به من كيٍّ، ورفوٍ، وإصلاحٍ. وكانت تلك الأُخت القرويّة خبيرةً بهذه الأعمال،

فطاب لها أَن تُسعد نزلاءَها المسنّين بأَنظف الثياب، وملاءات الأَسرّة، وبأَحسنها ترقيعًا.

ثمّ ارتأت الرئيسة امتحانها في خدمة الرجال المسنّين، إِذ كانت معظم الراهبات، ولاسيّما الفتيَّات منهنّ، يعتذرنَ عن تلك المهمّة التي تسبّب لهنّ مضايقاتٍ جمّةً، من جرّاء الأقوال البذيئة التي لا يتورّع أولئك المسنّون عن التلفّظ بها أَمامهنّ، ومحاولات بعضهم التحرُّش بهنّ. ولكنّ الأخت كاترين فرضت احترامها، بما تميّزت به من شدّة مراسٍ، ومن حزمٍ صارمٍ.

النذر

وأخيرًا تسنّى للأُخت كاترين أَن تتوّج خمس سنواتٍ من الخدمة، بالنذور التي تكرّسها تكريسًا نهائيًا للّه. وهكذا، في الثالث من شهر أيّار ١٨٣٥، ارتفع صوتها، في كابيلاّ الدير، معلنًا بنشوةٍ روحيّةٍ طاغيةٍ:

«أنا، كاترين لابوريه، بحضور اللّه، وكلّ بلاطه السماويّ، أُجدّد وعود معموديّتي، نادرةً للّه الفقر، والعفّة، والطاعة...».

ثم أضافت النذر العزيز على قلب أَخوات القدّيس منصور، والذي كانت جذوره قد ترسّخت في أَعماق كيانها:

«وأَن أَنصرف إلى خدمة أَسيادنا الحقيقيّين، الفقراء المرضى، جسديًّا وروحيًّا، في إِطار جمعيّة بنات المحبّة. هذا

ما أَلتمسه بحقّ استحقاقات يسوع المسيح المصلوب، وبشفاعة السيّدة العذراء، كلّيّة القداسة».

بيد أَنّ فرحة هذه النذور عكّرتها غصّةٌ، أرادتها كاترين أن تكون تعويضًا وفديةً. فقبل نحو سنةٍ، أي في ٢٦ نيسان ١٨٣٤، كانت شقيقتها الكبرى، ماري لويز، التي سبقتها في الانضواء إلى جمعيّة «بنات المحبّة»، وتولّت رئاسة أَحد أَديرة تلك الجمعيّة، وهي في الثالثة والثلاثين من العمر، كما أَنّها كانت المشجّعة الأَشدّ دفعًا لدعوة كاترين، قد هجرت الدير، إِثر تعرّضها لحملة افتراءاتٍ قاسيةٍ، فعُزلت من منصبها، وأُجبرت على العمل، مدى سنتين، أُختًا بسيطةً، مع الأخوات اللواتي دبّرنَ لها المكيدة، ولفّقنَ لها التهَم الباطلة، قبل أن تُنقَل إلى مراكز أُخرى. وطفح بها الكيل، عندما ألصقت بها الرئاسة العامّة اتّهاماتٍ باطلةً، لم تحتملها كرامتها القرويّة، فآثرت الابتعاد عن الدير، وفقًا للحرّيّة التي وفّرها المؤسّس القدّيس منصور، الذي أَتاح لكلّ راهبةٍ أن تجدّد، كلّ سنةٍ، عزمها على المضيّ قُدمًا في دعوتها، أو التخلّي عنها.

ولكنّ الأُخت كاترين، التي آلمها قرار شقيقتها، ما انفكّت تصلّي بحرارةٍ وعنادٍ، إلى أَن عادت شقيقتها تلك، بعد فترة انقطاعٍ، إلى الدير الذي حقّقت فيه أغلى أَحلامها.

موسم الجنى

المرحلة اللاحقة من سيرة كاترين، يكتنفها الضباب، فهي لا تتميّز بمحطّاتٍ بارزةٍ، ولا عجب إن أَغفلها معظم كاتبي سيرتها، غير أنّها كانت زاخرةً بأشهى الثمار الروحيّة.

فرغم مظهر المناعة الجسدية الذي كانت تبدو عليه، كانت تعاني ما يُدعى «عرق النسا»، الذي يشيع الأَلم في المفاصل، ولاسيّما في أَسفل الظهر وفي الركبتين، ويجعل من كلّ حركةٍ مصدرَ آلامٍ ممضّةٍ. ولكنّ شغفها بالخدمة كان يزوّدها بالقدرة على تخطّي هذه الإِعاقة، فتصرّح للمقرّبين منها أَنّها ما دامت قادرةً على العمل، فهي سعيدةٌ. وقد أَفادت إِحدى رئيساتها: «تحت مظهر عافيةٍ تامّةٍ، كانت الآلام لا تفارقها، ولم يكن أَحدٌ يشفق عليها».

المزمور يقول: «من يزرع في الدموع، يحصد في الفرح»،

وقد يكون الفرح ممزوجًا بالمشقّة، والعنَت، والصليب. وذاك كان سرّ البطولة التي تمرّست بها كاترين.

إنجازها الأوّل كان تحويل رقعة الأرض الملحقة بالدير مزرعةً صغيرةً تزوّد المرضى والفقراء باللحم والبيض والحليب، بفضل الخبرة التي اكتسبتها في مزرعة ذويها، وبفضل إدارتها الحازمة الحريصة، وحساباتها الدقيقة.

كانت تخدم على جميع الجبهات، غير أنّ رعاية الرجال المسنّين كانت محور اهتمامها. لقد أغدقت عليهم كنوز عطفها، فقابلوه بالحبّ والاحترام. وكانت تخصّ برعايتها الموصوفين «أشرارًا»، السكارى والمشاكسين الذين ترى فيهم جرحى قلوبٍ، يصرخون مستغيثين، وينطحون الجدران، غيظًا ومرارةً، فكانت ترعاهم رعاية أطفالٍ كي تسرّب إلى نفوسهم الثقة بذواتهم، والعزّة المفقودة، وتجود عليهم بكلّ ما يحتاجون إليه، حريصةً على ألاّ يفتقروا إلى شيءٍ. وإلى ذلك، كانت متشبّثةً بالمنطق والعدل، والمبادئ، طافحةً طيبةً كفيلةً بانتزاع سموم المرارة والعدائيّة. وكانت تداوي بعضهم

بحثّهم على الصلاة، وتُعدّهم، بذلك، لنهايةٍ صالحةٍ، تسبح في السلام.

لقد استحوذ عليها شغَف خدمة أَعضاء يسوع المتألّمة، في كلّ مجالٍ، وتغلغلت نصيحة القدّيس منصور إلى أَعماقها، وأَخذت بكلّ أوتار كيانها:

«في الحقيقة لم يقصد الربّ، عندما أَوجد هذه الجمعيّة، أن تهتمّوا فقط بالجسد... بل إنّ غاية ربّنا هي أن تُغيثوا، أيضًا، نفوس الفقراء المرضى».

وقد نفّذت كاترين هذه النصيحة، بكلّ ما اختلج في نفسها من حبٍّ، وبكلّ ما تفتّق عنه ذهنها من مبادراتٍ، فلم تقتصر على التصدُّق بما ملكت يمينها، بل جهدت في إيجاد الحلول للقضايا المستعصية، مثل دفع الإيجارات المتأخّرة تلافيًا للطرد، وتوفير الأدوية للمرضى، وإيجاد فُرَص عمل تمكّن من كسب خبز العيش. ولطالما دأبت على بلسمة النفوس الجريحة بعزاء الله. وفضلاً عن كلّ ذلك كانت تتولّى استقبال الزائرين، منذ الساعة السابعة صباحًا، حتّى السابعة مساءً.

وقد شهدت أَخواتها أنهنّ لم يسمعنَ منها، يومًا، تذمّرًا من استقبال غريبٍ، ولم تُغضِب، يومًا، أيّ إنسانٍ، بل اتّصفت، دائمًا بالطيبة، والمودَّة، والدماثة، والمرح.

وإلى جانب كلّ هذه المهامّ كانت كاترين تتابع عن كثبٍ أَوضاع أُسرتها، مقدّمةً لكلّ فردٍ منها ما تستطيع من عونٍ. وقد فطر قلبَها موتُ والدها، في وحدةٍ مريرةٍ، بعد أَن تزوّجت شقيقتها الصغرى «تونين»، في سنّ الثلاثين، وبقي بيت الأُسرة الكبير، يئنّ فراغًا ثقيل الوطأة، ويزيد من كآبته وجود ابن الأُسرة الأصغر المعاق المحتاج إلى رعايةٍ في كلّ لحظةٍ.

وفي ميدان اهتمامها بأَفراد أُسرتها، تعاقبت عليها مواكب الأَفراح والأَحزان. فبفضل صلواتها ووساطتها، عادت شقيقتها الكبرى، «ماري لويز»، إلى أَحضان جمعيّة «بنات المحبّة»، في مطلع شهر تموّز ١٨٤٥. وسيم ابن أختها «فيليب» كاهنًا لعازريًّا في شهر أيّار ١٨٦٩. وعاد زوج أُختها إلى أَحضان الكنيسة، بعد أَن قضى معظم حياته ملحدًا، بعيدًا

عن الكنيسة. وكان لها إسهامٌ في إيقاظ روح اللّه لدى إخوتها الذين كانوا قد نأوا عنه. ولكنّها فُجعت بموت أخيها جاك عام ١٨٥٥، فمدَّت يد العون لأرملته، وغدت سندًا لابنته البالغة الثالثة عشرة من عمرها، وكذلك ساندت ابنة أُختها التي هجرها زوجها، بلا إنذارٍ، وأصبحت لابنتيها الأُمّ والعون والمرشدة.

ومع كلّ تلك اللفتات السخيّة والمنقذة، لم تُنقِص شيئًا من حذافير واجباتها تجاه ديرها، وتجاه أصدقائها المسنّين والفقراء، وخاصّةً تجاه الربّ. فكلّ لحظة فراغٍ لديها، كانت تدفعها نحو المصلّى، حيث تذوب صلاةً، وتأمّلاً، أمام مخبأ القربان.

ثمارٌ في بستان القدّيس منصور

في مطلع حياة كاترين الرهبانيّة، كانت العذراء قد كلّفتها بإبلاغ رؤسائها ضرورة إصلاح جمعيتَي القدّيس منصور، حيث تراخى النظام، وفترت الغيرة الرسوليّة، وبردت حرارة التقوى، ولاسيّما في أعقاب الثورة التي اجتاحت فرنسا.

وقد أَثلج صدرَها ما شاهدت من نهضةٍ قضت على التجاوزات، وعلى محاولات الإصلاح الخجول الزائفة.

وكانت هي قدوةً في الرجوع إلى الروح المنصوريّة الأَصيلة. وتوضح كتاباتها، في تلك المرحلة، توجّهاتها الروحيّة. فإثر سماعها محاضرةً حول اسم مريم المقدّس، في ١٩٣٨/٥/٢٥، كتبت قصدها:

«اتّخاذ العذراء مثالاً وقدوةً، لدى الشروع بكلّ عملٍ...

والتساؤل هل قامت مريم بهذا العمل، كيف، ولماذا، وبأيّ قصدٍ عملته. كم اسم مريم جميلٌ، ومبعث عزاءٍ!»

وعقب رياضةٍ روحيّةٍ في أيّار ١٨٣٨، اتّخذت القصد التالي:

«أن أُقدّم ذاتي، بلا تحفّظٍ، للّه... مواجهةً كلّ المصاعب والمعاكسات، بروح التواضع والتوبة... ولكلّ إهانةٍ تلحق بي، فليُبارَك اسمه القدّوس».

وفي أعقاب رياضةٍ روحيّةٍ أُخرى كتبت:

«الالتزام بالنظام، التزامًا دقيقًا، وعدم الاقتصار على الحرف، ولاسيّما في الأُمور الصغيرة. فإن نحن أَحسنّا القيام بالأمور الصغيرة، أَحسنّا القيام بالأُمور الكبيرة تشبّهًا بالربّ، الذي علينا الاقتداء به».

«الجمع بين سلوك مرتا وسلوك مريم. يا مريم العذراء اجعليني أُدرك جيّدًا ما هي ابنة المحبّة».

وفي أَثناء تأمّلها الصليب، عام ١٨٤٨ دوّنت:

«نؤمن بك، أيّها الصليب المقدّس، ونودّ التكفير (عمّا سبّبناه لك). فيك يكمن رجاؤنا. قدّس الصالحين، وردّ الخطأة إليك».

وبناءً على الرسالة التي تلقّتها من العذراء، عام ١٨٣٠، دأبت كاترين على الصلاة من أجل توحيد مؤسَّستي القدّيس منصور. وكانت موقنةً أنّ العمل بروح ذلك القدّيس يمهّد لموتٍ عذبٍ، كما يتّضح من قولها: «لقد أحبّت العذراء مريم الفقراء، و «ابنة المحبّة» التي تحبّ الفقراء، لن تخشى الموت. بل إنَّ خدمتها السخيّة للفقراء، ستُسيل في نفسها عزاءً كبيرًا. لم يُسمَع، قطّ، أنَّ راهبةً من «بنات المحبّة» ارتعدت حيال الموت، بل، على نقيض ذلك، شوهدنَ جميعهنّ، يمتنَ، دائمًا، ميتةً سعيدةً، مفعماتٍ بأعذب عزاءٍ».

وفي ختام الشهر المريميّ من عام ١٨٤٣، دوّنت الأخت كاترين باقة مقاصدها كما يلي:

«التمثّل بالعذراء.

«إيداع كلّ شيءٍ في قلبها الطاهر، في هذا الهيكل الذي

طاب لربّنا أَن يسكن. إنّ الفضائل الثلاث التي يقتضيها نظامنا: التواضع، والبساطة والمحبّة، هي أساس دعوتها المقدّسة...

«علينا الولوج إلى هذا الهيكل وعدم الخروج منه... أجل، في هذا الهيكل، يجب أن نرتمي، واثقين بأَنّ العذراء مريم ستوفّر لنا كلّ الوسائل اللازمة لخلاصنا. في هذا الهيكل سنجد التواضع، واللطف، والصبر، والمودّة، والمحبّة، وسائر الفضائل كلّها. أجل، من هذا المكان سنستمدّ كلّ الفضائل؛ وعلينا أَن نجمع كلّ الثمار التي جنيناها، وكلّ النعم التي تلقّيناها خلال هذا الشهر، ونقدّمها لأُمّنا الحنون مريم.

«مقصد: ألاّ نُمضي يومًا لا نمارس فيه إِحدى فضائل العذراء القدّيسة... ولن يصعب علينا ذلك، لأنّ كلّ ما هي مارسته، نقوم به بأَعمالنا، ودعوتنا تؤهّلنا لتحقيقه. يا قلب مريم المنزّه من الدنس، هب أُسرتَي القدّيس منصور هذه النعمة الكبرى».

في الرابع من شهر آب ١٨٤٣، تمّ انتخاب الأب «إيتيين»

رئيسًا عامًّا على الجمعيَّتين، وفي الخامس عشر من ذلك الشهر، الموافق لعيد انتقال السيّدة العذراء، جدّد الأَعضاء فعل الثقة بالعذراء، الذي كان قد تُلي، للمرَّة الأولى، في ١٦٦٢/٨/١٥، أي سنتين بعد وفاة المؤسّس. وقد أَشار الرئيس الجديد، في رسالته العامّة، بتاريخ ١٨٤٣/٩/٨ إلى الظهورات التي نبعت منها تلك الوحدة بين الأُسرتين المَنصوريَّتين. ولا ريب أَنّ نفس كاترين ارتعشت، وهي تقرأ، في هذه الرسالة:

«لا أَستطيع تجاهل وساطة الأُمّ الجليلة، كلّيّة الطهر، وساطتها الجليّة التي أَعطتنا براهين فائقةً على حنانها... إِنّ شفاعتها المنيعة هي التي نالت لنا من الله ألاّ تهلك أُسرتانا، وسط الكوارث التي انهالت علينا، بل أَن يستخدمها الربّ في سبيل إِنعاش الإيمان. وهل بوسعنا أَن نعزو إلى عاملٍ آخر هذه الدعوات التي تضاعفت على نحوٍ لا يمكن فهمه، والتي نبعت من كلّ صوبٍ، وهذا النموّ المذهل الذي أَحرزته جمعيّتكم، في قلب العاصفة؟».

وفي ذكرى انتخابه الأولى، أكدّ الرئيس العامّ يقينه بما كان للرؤى التي نعمت بها كاترين – التي أغفل اسمها – من أثرٍ حاسمٍ على نهضة المؤسَّستين المَنصوريَّتين، نهضةٍ أنتجت تجدُّدًا في جميع الميادين: «الصلاة، والعلاقات الإنسانيّة، والمبادرة، والسخاء، والجدوى. وقد انطلقت أفعال الشكر من الحناجر والقلوب».

وعاد فأكّد، مطلع عام ١٨٥٥:

«هذه الجمعيّة التي نهضت، بمشقَّةٍ، من أطلالها، لم يكن لها سوى وجودٍ هزيلٍ وعقيمٍ، وسوى أملٍ ضئيلٍ في استعادة المكانة المرموقة التي تبوّأتها في الكنيسة، عندما أنبأها صوتٌ سرّيٌّ أنّ الله سيستخدم أُسرتَي القدّيس منصور في سبيل إنعاش جذوة الإيمان». وأضاف:

«وما لبث أن حدث، في مصلًّى مركز «بنات المحبّة» الرئيسيّ ظهور مريم المنزّهة من الدنس، الذي أدّى إلى ولادة الإيقونة العجائبيّة. لقد جرى هذا الحدث عام ١٨٣٠، ومعه وُلد عهدٌ جديدٌ للجمعيّة».

ووصف حال الجمعيّة قبل هذا الحدث، فقال:

«كانت، دائمًا، عاجزةً عن النهوض، ولم تستبقِ من ماضيها إلاّ بصيصًا مهيّأً لانطفاءٍ وشيكٍ. كانت الدعوات نادرةً وغير ثابتةٍ. لم يكن للجمعيّة، في فرنسا، سوى بضعة مراكز ذاويةٍ، وفي البلدان النائية سوى مراكز مهجورةٍ، يُنهي فيها مرسلون قدامى، بحزنٍ، مهمّةً رسوليّةً لم تُؤتِ إلاّ دموعًا وآلامًا، ولم يلطّف أساهم حتّى عزاء الرجاء. ولكن بعد ظهور العذراء مريم المنزّهة من الدنس الذي أشرنا إليه، تغيّر وجه كلّ شيءٍ، وبُعثت الحياة، من جديدٍ، داخل الجمعيّة. ومنذ عام ١٨٣١، شرعت كتائب مرسلين تحدوهم غيرةٌ ممعنةٌ في الطهر والاندفاع، تجتاز البحار، ميمّمةً شطر المشرق والصين، لتصل ما انقطع مع رسالتنا الخارجيّة، من سلسلة الأجيال التي بترتها الثورة».

وأشاد الأب «إيتيين» بالانتشار العالميّ الواسع الذي واكب التطوّر النوعيّ. فقد ارتقى عدد طالبات الرهبنة من مئةٍ إلى خمس مئةٍ، فبات لا بدّ من بناء صرحٍ رحبٍ لاستيعابهنّ.

وكذلك كان شأن الآباء اللعازريّين، فبعد أَن كانت جمعيّتهم محتضرةً، تدفّق في عروقها دمٌ جديدٌ، بإقبال دعواتٍ شبابيّةٍ كثيفةٍ.

وخلص الأَب «إيتيين» إلى القول:

«كلّ ذلك تحقّق خلال السنوات الأَربع والعشرين التي عقبت ظهور مريم المنزّهة من الدنس. ومَن لا يرى في ذلك مداخلةً رائعةً من السماء؟ ومَن لا يتخيّل مشاعر الإعجاب التي خامرت القدّيس منصور؟ ومَن لا يشاركه القول: إنّ إصبع الله هنا؟».

وعن ازدهار جمعيّة «بنات المحبّة»، كتب «أندريه فروسّار»:

«في البدء كنّ ثلاث أو أَربع أخواتٍ التأمنَ، للمرَّة الأُولى، في جماعةٍ، حول «لويز دي ماريّاك»، بتاريخ ١٦٣٣/١١/٢٩. وفي شهر تمّوز التالي، ارتقى عددهنّ إلى اثنتي عشرة، واليوم، عندما يتمّ إحصاؤهنّ، خلال ثلاثة قرون، يبلغ عدد القبّعات البيضاء، اللواتي حلّقنَ، إلى نحو ستّ مئة أَلفٍ، منهنّ اثنان وأربعون ألفًا في الجيل الحاضر،

منتشراتٌ في المستشفيات ودور الحضانة، والمدارس، والسجون، والملاجئ والمياتم، على امتداد جهات العالم الأربع. يقدّمنَ العون لفقيرٍ في كوخه، ويواكبنَ محتضرًا، متيقّظاتٍ إلى أنّة جريحٍ، معالجاتٍ قروح المصابين، وحيداتٍ، ليلاً، مع فوانيسهنّ في ممرّات المستوصفات، أو منطلقاتٍ على الطرقات بأكياس المؤونة، على متن درّاجاتٍ، أو عرباتٍ، أو سيّاراتٍ، أو جِمالٍ، أو على أقدامهنّ، طائراتٍ بأجنحتهنّ من ألمٍ إلى بؤسٍ، صابراتٍ في ردائهنّ السميك، تحت الشمس القائظة...».

في هذه الأثناء، كان انتشار الإيقونة العجائبيّة مسكونيًّا، وتخطّى عدد الإيقونات الموزّعة المليار. وتكاثرت الارتدادات الروحيّة، وذاعت أنباء أشفيةٍ عجيبةٍ تحقّقت بشفاعتها، في كل أرجاء المعمورة، حتّى الصين.

وكان أبلغ أحداث الارتدادات وقعًا، بفضل هذه الإيقونة، هو انضواء المصرفيّ اليهوديّ الفرنسيّ «ألفونس راتسبون» إلى الكنيسة الكاثوليكيّة. وبعد أن سيم كاهنًا طلب مقابلة الأُخت

التي حظيت بالرؤيا، كي يشاركها هذه النعمة. ولكنّ الأخت كاترين، حرصًا منها على الكتمان، وعلى وقف كلّ ثانيةٍ من وقتها على الخدمة، رفضت مقابلته.

وجديرٌ بالتنويه أنَّ «فريديريك أوزانام» الذي أَسّس جمعيّات القدّيس منصور عام ١٨٣٣، كان يعلّق، في عنقه، الإِيقونة العجائبيّة. وكذلك كان الكردينال نيومن قبل أَن يرتدّ عن البروتستانتيَّة، إلى أَحضان الكنيسة الكاثوليكيّة في ١٨٤٥/١٠/٦.

انطلاقةٌ وعقباتٌ

كان مركز الجمعيّة الذي تعمل فيه كاترين يقع في ضاحيةٍ من ضواحي باريس تعجّ بالبؤس. وكانت «بنات المحبّة»، اللواتي يحدوهنّ روح القدّيس منصور، يجهدنَ في أَن يكنّ، دائمًا، كلاًّ للكلّ، بمعزلٍ عن أيّ انتماءٍ سياسيٍّ، غير ملتزماتٍ إلاّ بمقتضيات الإنجيل.

فرئيسة كاترين الأُولى دأبت، طيلة حقبة رئاستها، على أَن تعطي بواكير الثمار التي ينتجها بستان الدير لفقراء الحيّ، ولعجزة المأوى، وبعدئذٍ يُتاح للراهبات تذوّقها.

أمّا الرئيسة التي خلفتها، منذ عام ١٨٤٥، فقد اتّخذت مبادراتٍ جريئةً لخدمة الحيّ، فافتتحت مدارس مجّانيّةً لأَبناء العمّال الذين كانوا ضحيّة استغلالٍ بشعٍ، كما افتتحت ملاجئ لاستقبال ضحايا شتّى أصناف البؤس الجسديّ

والأخلاقيّ. وفي عام ١٨٥٠، افتتحت مدرسةً داخليّةً للأيتام الذين خلّفهم وباء الكوليرا.

في هذه الأثناء كانت تنشب، أحيانًا، صداماتٌ بين الأخوات والرئيسات الجديدات المتعاقبات، إذ كانت كلٌّ منهنّ راغبةً في إجراء تغييراتٍ لا تروق كلّها للجميع. وكانت كاترين هي التي تطفئ نار الأزمات، وتذكّر أخواتها بواجب الانضباط والطاعة، فوجدنَ دائمًا، فيها، القدوة المثلى. وكانت للمبتدئات الجديدات خير مدرسةٍ في ممارسة الفقر والطاعة، والخدمة، والاندماج في حياة الجمعيّة. ولطالما ساعدتْ بعضهنّ على اجتياز أزماتٍ ضميريّةٍ، وعلى الثبات في دعوتهنّ، بعد أن راودهنّ خاطر التخلّي عنها. وقد شهدت إحداهنّ: «ربّما كانت الأخوات الأُخريات يضاهينها، ظاهريًّا، بالكمال. ولكن لم تكن أيّةٌ منهنّ، تعطي، نظيرها، انطباع نفسٍ ذائبةٍ في حبّ الله، والعذراء القدّيسة، ومتجرّدةٍ، كلّيًّا، عن ذاتها». وفضلاً عن ذلك كانت كاترين تُخمد، بعذوبتها ودماثتها، سخط بعض النزلاء

المسنّين، الذين لم يروا بعين الرضى انصراف بنات المحبّة إلى العناية بفقراء الحيّ، الذي عَدّوه إهمالاً لهم.

خصال الأُخت كاترين هذه، وخدماتها، كانت تُقدَّر تقديرًا مبدئيًّا، ولكن لم يكن لها أَيّ دورٍ في إِدارة ديرها، ولا صوت في قراراته. كانت مجرّد راهبةٍ ملتزمةٍ، تُعنى بالأَبقار والدجاج، قرويّةٍ تصلح لكلّ المهامّ الشاقّة، وتقوى على حلّ كلّ المشاكل المادّيّة والأدبيّة، فحسبُ. وبما أَنّها لم تشكُ، يومًا، من هذا الوضع، ولم يشكُ أَحدٌ منها، لم يعبأ أَحدٌ بشأنها، وكأنّ كلّ ما كانت تقوم به هو واجبٌ طبيعيٌّ، لا منّةَ لها فيه، ولا يستحقّ أيّ شكرٍ أو ثناءٍ.

ولكي يتيح لها اللّه الاستغراق في التواضع، سمح لرئيستها، منذ أَخذِها علمًا بأَنّ الأُخت كاترين هي رائية العذراء، أَن تمعن في تجريحها وإِذلالها. وقد روت إِحدى أَخواتها:

«خمس مرَّاتٍ، أو ستّ مرّاتٍ، رأيتُ الأخت كاترين راكعةً على ركبتيها، أمام الرئيسة، الأمّ «دوفيس»، التي

كانت تؤنّبها على أخطاءٍ لم ترتكبها، وعلى أعمالٍ لم تكن لها بها يدٌ، أو مسؤوليّةٌ. وكان تأنيبها لها قاسيًا، بل مفرطًا في القسوة. ومع أنّ الأخت كاترين كانت بريئةً، إلاّ أنّها لم تعترض. ولكن بدا لي أنَّ نفسها كانت ساحة صراعٍ، إذ كانت شفتاها ترتجفان، وكأنّهما تهمّان بالكلام... ولكنّ هذا الصراع كان ينتهي، دائمًا، بانتصار التواضع. ولشدّة تأثّري، استفسرتُ الأمّ «دوفيس» كيف لها أن تعامل الأخت كاترين على هذا النحو، فأجابتني بحزمٍ: «يا أُختي، دعيني أفعل، فأنا مدفوعةٌ إلى هذا العمل دفعًا».

والأنكى هو أنّ موقف الرئيسة هذا أضحى مثالاً احتذته راهباتٌ أُخرياتٌ متنفّذاتٌ، ألِفْنَ النظر إلى الأخت كاترين نظرتهنّ إلى ريفيّةٍ متخلّفةٍ، مبتذلة اللهجة، تفوح من مئزرها روائح الاصطبل، وقد نعتها بعضهنّ بالحمق والغباء. ولكن، بالمقابل، كانت كاترين ملجأ القادمات الجديدات، تبدّد ارتباكهنّ حيال المهامّ الجديدة الموكلة إليهنّ، في ذلك الحيّ الملعون، وتمهّد لهنّ سبُل الاندماج في حياتهنّ الجديدة.

وكانت الخادمات يحطنَها بأرقّ محبّةٍ، لقاء ما تبدي هي لهنّ من عنايةٍ واهتمامٍ. كان تيّار مودّةٍ يربطها بالمتواضعين والصغار، الذين كانوا يلوذون بها، لوذَهم بجدَّةٍ طيّبةٍ، متينةٍ. أمّا القديمات المؤهّلات، فكانت تدعهنّ يطرنَ بأجنحتهنّ الخاصّة.

وقدَّر المسنّون حرصها على إبقاء مأواهم، دائمًا، في أفضل حالٍ، رغم انصراف معظم الراهبات إلى العناية بقضايا الحيّ.

ورغم بلوغها الستّين من العمر، والوهن الذي سرى في أَوصالها، ظلّت الأُخت كاترين مضطلعةً بأَكثر المهامّ اليدويّة مشقّةً، مجاهدةً على جميع الجبهات: المدجنة، والمبقرة، والبستان الذي حوّلته إلى مزرعةٍ صغيرةٍ، وفوق كلّ ذلك، مسح أَرض المركز وتنظيفها. كانت تزري بالوهن الجسديّ، مستمدَّةً قوّتها من عزيمة إِرادتها، ونار إِيمانها.

وقد اكتسبت شهرةً مستحقّةً في السهر على المحتضرين، إِذ كانت المنيّة تنتزع نحو أربعة مسنّين كلّ سنةٍ، في المأوى الذي

تشرف عليه. فكانت تجهد وتُفلح في التوفيق بين العناية الجسديّة، والشفاء الروحيّ، فتساعد المدنفين على اكتساب السلام النفسيّ، وتصالح حتّى أعتى الملحدين تصلُّبًا مع اللّه، وتقودهم، برقّةٍ، إلى أعتاب الفردوس.

سرّ الأُخت كاترين

ومع كلّ ذلك، ظلّت الأخت كاترين شديدة الحرص على إبقاء سرّها الخاصّ مغلّفًا بأكبر قدرٍ من الكتمان. وكان مظهرها الزريّ، وقبقابها الغليظ، ومئزرها القرويّ القذِر، وامّحاؤها السحيق، سندًا لها على الكتمان.

ولكن منذ عام ١٨٧٠، عندما اطّلعت بعض الرئيسات وأُخرياتٌ على هويّة الرائية، بات عسيرًا على الأُخت كاترين المضيّ قدمًا في إخفاء الكرامة التي حظيت بها، إخفاءً تامًّا. وكانت إحدى الراهبات قد سمعت أَنّ الأخت التي رأت السيّدة العذراء هي، الآن، مشغولةٌ بالعناية بالأبقار، في أحد مراكز باريس. وقد تسنّى لتلك الراهبة القدوم إلى المركز المذكور، وشاهدت الأُخت التي تعنى بالأبقار، ولكنّها لم تكتشف فيها السموّ الصوفيّ الذي يؤهّل، حسب زعمها،

لرؤية أمّ اللّه. وقد حاولت تلك الراهبة استدراج الأخت كاترين إلى البوح بحقيقة ما يشاع عنها، فلم تلقَ سوى التهرّب، والدعوة إلى النأي عن الاهتمام بما لا يعنيها.

واللافت أنّ ذويها أنفسهم، وأبناء أشقّائها، وشقيقتها، لم يعلموا بظهور العذراء لها، إلاّ بعد وفاتها. وتسنّى لبعضٍ من زميلاتها التقاط تمتماتٍ تشير إلى الأُخت كاترين بصفتها الرائية، ولكنّ تواضعها وامّحاءها كانا يبثّان الشكّ في صحّة هذه الشائعات.

وعندما كانت رئيستها تأتي بزائرين فضوليّين لكي تريهم الرائية حيث كانت تخدم، كانت الأخت كاترين تستشفّ الحيلة، فتُسرع بالتواري؛ وعقب رحيل الزائرين كانت ترجو الرئيسة ألاّ تكرّر هذه المحاولات.

كانت تلجأ إلى شتّى الأساليب والحِيَل، لكي تبعد عن نفسها هويّة الرائية، وكان كتمان راهبات الدير – وجهلهنّ في الغالب – عونًا لها، مع أنّ انكشاف أمرها كان يزداد، يومًا فيومًا.

لقد اندرجت حياتها في البساطة والامّحاء، بحيث شهدت زميلةٌ لها عملت ستّ سنواتٍ إلى جانبها: «مع تأكّدي من كونها مختارة السيّدة العذراء، كنت أَنزع إلى الشكّ في ذلك، فقد كانت سيرتها شبيهةً بسيرة الأُخريات إلى أبعد حدٍّ».

تمنّي تحقيق سائر طلبات العذراء

بعد أن لُبّي طلب العذراء بسكّ الإيقونة التي لاقت انتشارًا تخطّى أَجرأ التوقّعات، عادت الأخت كاترين تطالب بتحقيق سائر رغبات العذراء، وأَهمّها توسيع مصلّى شارع باك، حيث ظهرت لها العذراء، وفتحه للجمهور والحجّاج، وبناء هيكلٍ للمنزّهة من الدنس يُنصَب عليه تمثالٌ للعذراء، كما ظهرت لكاترين، حاملةً بين يديها كرةً أرضيّةً، وعيناها شاخصتان إلى السماء، في نظرة تقدمةٍ وشفاعةٍ، فيما كانت تنبعث من خواتم أصابعها أشعَّةٌ ساطعةٌ ترمز إلى النعَم المتدفّقة منها على أَرض البشر؛ ولكنّ بعض الخواتم لا ينبعث منها أَيّ إِشعاعٍ، وهي ترمز إلى النعَم التي لا يلتمسها أحدٌ، فتظلّ حبيسة موئلها.

هذا الطلب لاقى معارضةً، خشية أَن يؤدّي نصب هذا

التمثال إلى تشويش الأَذهان بين الصورة الظاهرة على الإِيقونة، حيث تقف العذراء فوق الكرة، وتنبعث الأَشعّة من يديها المبسوطتين، وتمثالٍ آخر مختلفٍ، من شأنه إِثارة الريبة.

وثمّة رؤيا أُخرى لم تُمثَّل، هي رؤيا لصليبٍ جسيمٍ، رأته الأخت كاترين على تلّةٍ مطلّةٍ على باريس، رامزًا إلى الخلاص والنصر.

وعندما تنامت إلى مسامع كاترين أَنباء ظهورات لورد، هتفت تلقائيًا:

– «إِنّها العذراء ذاتها، والظهور ذاته!».

وأَفادت رئيستها، حينذاك، أَنّ كاترين، مع أَنّها لم تطالع أَيّ كتابٍ حول موضوع لورد، كانت أَكثر اطّلاعًا على ما يجري هناك ممّن قرؤوا عن ظاهرة لورد، أو حجّوا إلى مزارها. وبهذه المناسبة عبّرت الأُخت كاترين عن أسفها للإِحجام عن فتح مصلّى شارع باك، حيث ظهرت لها العذراء، وإِلاّ لكان ذلك المصلّى أصبح مقصد حجٍّ يضاهي

لورد. وقد وُجدت، عقب وفاتها، ورقةٌ كانت قد دوّنت عليها شكوًى موجّهةً إلى السيّدة العذراء، تقول:

– «يا أُمّي الطيّبة، هنا يأبون تنفيذ رغباتك، فاظهري في مكانٍ آخر!».

غير أنّها كانت موقنةً، في قرارة نفسها، أنّ الحجّ إلى مصلّى شارع باك سيتحقّق، يومًا.

محنة ١٨٧٠

في شهر تمّوز ١٨٧٠، نشبت الحرب بين فرنسا وبروسيا، وكانت بدايتها كارثيّةً لفرنسا، فنزح كثيرون من أبناء المناطق الفرنسيّة المحتلّة إلى العاصمة باريس، واضطرّت «بنات المحبّة»، في تلك المناطق، أيضًا، إلى النزوح مع المرضى والمسنّين الذين كانوا تحت رعايتهم. ووقعت على كاترين مسؤوليّة إعداد الطعام اليوميّ، ليس فقط للمسنّين الذين كانت ترعاهم، بل، أيضًا، لحشود الجياع الذين تدفّقوا على الدير، وللنازحين، وبات يتعيّن عليها إعداد نحو ألفٍ ومئتي وجبة طعامٍ يوميًّا.

وبهذه المناسبة سُمح لراهبات الدير بالمناولة اليوميّة، التي لم تكن رائجةً في ذلك العهد، لعلّهنّ يستمددنَ منها القوّة والسلام.

وعندما حاصر البروسيّون باريس، في ١٨٧٠/٩/١٨، أوكلت الراهباتُ ديرَهنّ إلى حماية الأُمّ السماويّة، وعلّقنَ الإيقونة العجائبيّة على الأبواب والنوافذ. ولمّا اقترحت إحداهنّ إخفاء هذه الإيقونات، تجنّبًا لإثارة حنق الثوّار، اعترضت كاترين، قائلة: «بل ضعوها في مكانٍ بارزٍ، وسط البوّابة الكبيرة!».

ولمّا احتدم القتال، وساد الخوف، تولّت كاترين قيادة الجماعة، باثّةً في القلوب الطمأنينة والجرأة. غير أنّ المجاعة التي شاعت كانت تحزنها. فندرة الموادّ الغذائيّة، وتقنين توزيعها كانا لسخائها قيدًا وإعاقةً، فأُلجئت إلى التقتير الذي طالما مقتته وقاومته. وبسبب ضآلة اللحوم المتوفّرة، عمد القوم إلى استهلاك لحوم الحمير، والأحصنة، والقطط، والكلاب، والجرذان، وبلغت أسعار لحوم الأرانب أرقامًا مريعةً. وجهدت كاترين وأخواتها في إيجاد أيّ طعامٍ للمرضى والمسنّين، مكتفياتٍ بقضم خبزٍ أسود جافٍّ. واعترفت إحداهنّ أنّها، في أثناء غسلها مغارف الحساء، كانت تتلفّت، يمنةً ويسارًا،

وعندما تتأكّد أَنّ ليس من يراقبها، كانت تلعق ما كان لا يزال عالقًا بها من آثار حساءٍ، عساها تسكت عضّات الجوع.

وفيما كان مجرى الحرب يتّخذ منحًى مقلقًا، ويُشيع الرعب في النفوس، كانت كاترين لا تني تنشر الطمأنينة من حولها، مردّدةً:

– «لا ترتعبوا، فالسيّدة العذراء تحمينا، وعينها علينا وعلى الجمعيّة كلّها».

ومن أقوالها المأثورة، في تلك الفترة: « أنا لست أخشى البروسيّين بقدر ما أخشى المسيحيّين الفاترين!».

مع أَنّها، خلافًا للآخرين، كانت تتوقّع، دائمًا، هزائم الجيش الفرنسيّ، وتقدّم الجيش البروسيّ. ومع ذلك، كانت تثير دهشة الجميع بسجوّ نفسها، وهدوئها، وسط ذلك الأُفق القاتم والجوّ المدوّي. هذا الموقف كانت تستمدّه من الإِيحاءات التي تلقّتها من العذراء، يوم ظهورها لها عام ١٨٣٠، وتنبّأت بأَحداثٍ مريعةٍ ستجري بعد أَربعين سنةً، ولكنّها، في الآن

عينه، طمأنتها إلى أَنّ فروع الجمعيّتين المنصوريّتين ستنعم بالحماية.

وحتّى عندما أَصدرت الحكومة التي أَنتجتها الحرب، قراراتٍ ثوريّةً مناوئةً للإكليروس، ملغيةً دور الكهنة والراهبات في المجتمع الجديد، واستولى التشاؤم والقنوط على الجميع، ما انفكّت الأُخت كاترين تؤكّد:

«– «ستسهر العذراء علينا، وستحمي كلَّ شيءٍ، ولن يصيبنا مكروهٌ. ولكن فلنصلِّ كي يقصّر الله أَمد المحنة!»

وشهدت رئيستها، الأمّ «دوفيس» (Dufès)، عمّا جرى في مطلع شهر نيسان ١٨٧١، إِذ كانت هذه الرئيسة مضطرَّةً إلى الفرار من باريس، إِثر صدامٍ مع حرس الثورة، بسبب رفضها تسليمهم شرطيّين جريحيْن، محسوبَيْن على النظام السابق. وكانت خشيتها على مآل الدير ترهقها، فقالت:

– «جاءتني الأخت كاترين، وقالت لي، ببساطتها المعهودة: «أُختاه، لقد جاءت السيّدة العذراء لتزورك، فلم تجدكِ». فقلت:

– «ماذا؟ السيّدة العذراء جاءت؟»

– «أَجل، أُختاه، لقد دخلت إلى قاعة الجمعيّة، وسألت عنكِ، وبما أَنّكِ لم تكوني موجودةً فيها، قصدت مكتبك، وجلست على مقعدك، وقالت لي: «أَعلمي الأخت «دوفيس»، أَن تطمئنّ نفسًا، فلن يصيب هذا الدير مكروهٌ. فلتمضِ، وأَنا سأتولّى الأمر عنها».

حينذاك، نَعَتَ الجميعُ أَقوالَ الأُخت كاترين بالوهم، الذي ولّدته حالة الاضطراب السائدة. ولكنّ الأَحداث أثبتت أَنّ قولها كان، حقًّا، رسالةً سماويّةً.

وحاصر الثوّار الدير، في غياب الرئيسة. فقصدت الأخت كاترين مقرّ القيادة، ودافعت بجرأةٍ مدهشةٍ عن موقف الراهبات، وعن استقبالهنّ الجرحى، أَيًّا كانوا، فانهالت عليها الشتائم المقذعة، وأَشهَر جنديٌ سيفه، هامًّا بطعنها به. غير أَنّ زميلاً له، كانت الأُخت كاترين قد أسعفته، هبّ لنجدتها، وانتشلها، عنوةً، من حصار الثائرين المسعورين.

وبعد مضيّ أَيّامٍ معدوداتٍ، إِذ كان على الثوّار خوض

معركةٍ محفوفةٍ بالمخاطر، تهافتوا إلى الدير، ملتمسين إيقوناتٍ كفيلةً بتوفير الحماية لهم. وكان أحدهم مهتاجًا، لا يني يقذف الشتائم وعبارات التجديف، فاعترضت إحدى الراهبات:

«– «ولكنّك لا تؤمن لا بالله، ولا بالشيطان، فما عساك تفعل بالإيقونة؟».

– «غدًا سنخوض غمار النار، فعساها تحميني!».

– «خذها، إذن، وأرجو أن تعيدك إلى الله».

وكانت كاترين تجود بالإيقونات على كلّ طالبٍ لها، أيّةً كانت عقيدته، ونزعته، واثقةً بأنّ السيّدة العذراء هي التي ستستجيب لطلب كلٍّ منهم. وقد اعترف أحدهم، وكان على قدرٍ كبيرٍ من الشراسة، أنّ الإيقونة قلبت كيانه.

وفي هذه الأثناء، ما فتئت الأُخت كاترين دائبةً على الخدمة المرهقة، بعد أن انخفض عدد الراهبات اللواتي لم يغادرن المركز إلى أدنى من النصف.

ومع احتدام المعارك في باريس، أُكرهت جميع راهبات مركَزيْ «أَنغيين» (Enghien)، و«رويّي» (Reuilly)، إلى مغادرة باريس في شهر أيّار ١٨٧١. وأكّدت لهنّ الأخت كاترين أَنَّهنّ سيعدنَ قبل نهاية الشهر المريميّ.

وقبل رحيلها انتزعت الأخت كاترين إكليل تمثال العذراء المنصوب في فناء الدير، خوفًا عليه من السرقة أو التدنيس، واعدةً الأمّ السماويّة بإِعادته في نهاية الشهر. وبالفعل عدنَ جميعهنّ في ١٨٧١/٥/٣١، فسعدت كاترين بلقاء أصدقائها المرضى والمسنّين، والفقراء الذين تكاثرت أعدادهم من جرّاء الحرب، وعادت إلى إِطعامهم ومعالجتهم، وفي الآن عينه إلى استقبال الزائرين ببشاشةٍ ومحبّةٍ. وكان الجميع يقدّرون استقامتها، وحزمها الذي يشيع النظام والهدوء، واهتمامها بكلّ فردٍ، مساويةً الجميع، فأَيقنوا أَنّ بوسعهم الثقة بها، والاعتماد عليها.

تجرّدٌ، وتواضعٌ، وكراماتٌ

كانت الأُخت كاترين قد بلغت سنّ الخامسة والستّين، ومع ذلك ما انفكّت تستيقظ، كلّ يومٍ، على قرع جرس الرابعة فجرًا، وتقف للصلاة، مستقيمةً، ثابتةً، وعيناها الصافيتان شاخصتان إلى مخبأ القربان، أو إلى تمثال أمّ اللّه.

يوم عيد شفيعتها، في ١٨٧١/١١/٢٥، كانت قد أَصبحت عميدة السنّ في ديرها، فأَنشدت لها أَخواتها، من وحي المناسبة، قصيدةً رقيقةً. غير أَنّ ما أَفعم قلبها فرحًا أَكثر من أيّ نشيدٍ أو قصيدٍ، هو قول أحد المسنّين:

– «يا أُختاه، أَنت طيّبةٌ معنا جميعًا. وعندما نتناول طعامنا، تسألينا، دائمًا: هل نال كلٌّ منكم كلّ حاجته؟».

غير أَنّها، مع ذلك، لم تحظَ، من أَخواتها، بمثل التقدير

والاحترام اللذين كانت تنعم بهما راهباتٌ يتميّزنَ بتقوًى أكثر ظهورًا وعلنيّةً. فقد كانت قداستها القرويّة الفجّة مخيّبةً، وبساطتها المفرطة تصدم، وما كانت شيخوختها توليها المهابة التي توليها الشيخوخة لراهباتٍ أُخرياتٍ، أكثر اعتناءً بمظهرهنّ. فهي، حتّى اللحظة الأخيرة، كانت دائبةً على النهوض بأكثر المهامّ وضاعةً، رغم آلام مفاصلها، ووهن قلبها، ولم تتوقّف، مثلاً، عن مسح الأرض.

وكان حرصها على كتمان سرّها بعنادٍ، يغيظ أخواتها، ويخيّب فضولهنّ. ولكن، بما أنّهنّ لم يكنّ يشركنَها في القرارات الهامّة، كانت هذه العزلة المفروضة عليها تساعدها على المضيّ في هذا الكتمان. وقد سألتها، يومًا، إحدى بنات شقيقتها:

– «يا خالتي، علامَ أنتِ في نفس المركز منذ أربعين سنةً؟

– هنا لا يُنقَل من مراكزهنّ سوى اللواتي يتمتّعنَ بالذكاء!».

ولكنَّ تلك التي تجاهلتها المواقع العليا، كانت ملجأً وسندًا للأَخوات الشابّات، وللمبتدئات اللواتي كان يصدمهنّ، أَحيانًا، ثقل المهمّات المتوجّبة، في حيٍّ يرزح تحت وقر احتياجاتٍ لا حدود لها. كانت تستشفّ هموم الكثيرات منهنّ، وتقدّم لهنّ العون الروحيّ، والعزاء، والتشجيع. وكانت تحسن النفاذ إلى قلوب القادمات الصغيرات اللواتي يرتحنَ إلى صداقتها، رغم بضعة عقودٍ من العمر التي تفصل بينها وبينهنّ، ولاسيّما أَنّها كانت تخمّن هواجسهنّ، وتستبق تحقيق رغباتهنّ الدفينة.

وبعد أن استتبّت الأَحوال اندفعت رئيسة مركزها نحو مشاريع مفرطة الطموح، كفيلةٍ بإرهاق كاهل كاترين، التي، مع جفاء المعاملة التي كانت تتلقّاها، لم تعبّر، يومًا، عن تأفّفٍ أو مرارةٍ.

بتاريخ ١٨٧٤/٩/١١، عُيّن الأب «أوجين بوريه» (Boré)، رئيسًا عامًّا، فاستدعى الأُخت كاترين، للاطّلاع منها على ما حظيت به من رؤًى، عام ١٨٣٠، ولكنّها

اعتصمت بالصمت والكتمان، وخيّبت أَمله. إلاّ أَنّها فاجأته، ذات يومٍ، بقولها له، محيّيةً:

«– «صباح الخير، يا كاهن رعيّة الحبل بلا دنسٍ!

– ولكنّني لست كاهن رعيّةٍ.

– ستصبح كاهن رعيّةٍ.

– للرعيّة التي أَنتمي إليها، اسمٌ آخر.

– ولكنّها ستُدعى رعيّة الحبل بلا دنسٍ».

وبالفعل، بعد مرور سنتين عُيّن الأب «بوريه» كاهنًا لرعيّةٍ أَصبحت أَوّل رعيّةٍ في باريس تحمل اسم «الحبل بلا دنسٍ».

ولكن، يومًا إِثر يومٍ، كانت تصعب على كاترين المثابرة في كتمان سرّها، بعد أَن شاعت الأقاويل حولها والإِشارات إليها.

ومع كرّ الأَيّام، ودنوّ أَجلها، كانت الأُخت كاترين ما زالت تشكو من التلكّؤ في فتح مصلّى شارع باك للعموم، وللحجّاج، ومن إِحجام بعض أَخواتها عن التزوّد بالإِيقونة

العجائبيّة. وكانت لا تني تدعو إلى الإمعان في الصلاة، وإلى قرن الصلاة بروح التوبة والتضحية، وتأخذ على البعض المغالاة في صلاة الطلب، عوضًا عن التسليم بمشيئة الله، واعتبار رغباتهنّ الشخصيّة، وكأنّها مشيئة الله.

عام ١٨٧٤، عَيَّنت الرئيسةُ مشرفةً على مأوى المسنّين، محلّ الأخت كاترين، بصفة معاونة مديرةٍ، مع أنّ هذا اللقب لم يُطلَق، قطّ، على كاترين، التي طالما اضطلعت بمهمّة المديرة، اضطلاعًا كاملاً. ولا ريب أنّه لم يكن من اليسير على تلك التي قضت سنواتٍ في إدارة المأوى، أن تخضع لأوامر أُختٍ أصغر منها سنًّا، وأقلّ منها خبرةً، ولاسيّما إذا ذكرنا أنّ أُصول الأخت القرويّة كانت قد علّمتها الدفاع، بحرصٍ، عن ممتلكاتها وامتيازاتها. ولكن عندما أعلنت راهبات المأوى تفضيلهنّ إدارة الأُخت كاترين، أنّبتهنّ، وحثّتهنّ على إطاعة المشرفة الجديدة إطاعتهنّ لله. وكانت هي لهنّ القدوة، في هذا المضمار. تواضعها السحيق الراسخ سهّل عليها تقبّل هذا القرار، غير أنّ تنفيذه اليوميّ، كان يقتضي منها، بلا ريبٍ، الكثير من الجهد والتضحية.

وكان إشعاعها وتأثيرها يتكثّفان. وقد روت إحدى أَخواتها الراهبات أَنّها كانت تسعد بالصلاة في المكان المخصّص لكاترين في المعبد، عندما تكون غائبةً، إذ كانت تشعر، حينئذٍ، باحتلال مكان قدّيسةٍ، وتنعم بشفاعتها. وتروي تلك الأخت عينها أَنّه كانت للأخت كاترين مساعدةٌ لحراسة بوّابة الدير، سيّئة الطباع، ناكرةٌ لجميل الجميع، حتّى لجمائل الأخت كاترين عليها. وخطر، يومًا، لإحدى الأَخوات أَن تشكو أَمرها للرئيسة، ولكنّ الأُخت كاترين، حالت دون إيذائها، مع كلّ ما كانت تعانيه منها، خشيةً على تلك المسكينة من ألاّ تجد، خارج الدير، من يوفّر لها أسباب العيش.

وكانت هناك أُختٌ متعجرفةٌ لا تني تلاحق كاترين بتهكّماتها الجارحة، ولا تتورّع عن وصفها «بالحمقاء المشرفة على مأوى المسنّين». وقد عارضتها، يومًا بقسوةٍ وقحةٍ، وحاولت الأخت كاترين الدفاع عن نفسها، فلاحظت الرئيسة:

– «أرى، يا أُختي، أنّك تدافعين بقوّةٍ عن آرائك!»

فما كان من الأُخت كاترين إلاّ الركوع، على مرأى الجميع، والاعتراف:

– «إنّني، حقًّا، متكبّرةٌ!».

فعل التواضع المدهش هذا، من قبل راهبةٍ مسنّةٍ، يشهد لها الجميع بالتواضع والامّحاء، استدرّ دموع جميع الحاضرات.

في هذه الأثناء كانت قواها آخذةً في الانهيار والتلاشي، وقد دوّنت رئيستها، في سجلّ الدير: «حالتها الصحيّة سيّئةٌ جدًّا. لا تستطيع الاستيقاظ» (أي في الساعة الرابعة فجرًا) وتلاحظ الرئيسة أنّها «حادّة الطباع»، ربّما كي تبرّر قسوة معاملتها لها. هذه القسوة كانت تتحمّلها الأُخت كاترين بتواضعٍ وصبرٍ. وفي أحيانٍ عديدةٍ كانت تتعمّد استئذان تلك الرئيسة في أمورٍ بسيطةٍ، لا يمكن رفضها، محاولةً إراحة ضميرها بشأن قسوتها.

عام ١٨٧٦، شرعت تؤكّد للجميع أنّها لن تعبر تلك

السنة، والتمست إذنًا بمقابلة معرّفها الأسبق الذي كان يتظاهر بعدم تصديق رؤاها، مدّعيًا أنّها مجرّد أوهامٍ، وأضغاث أحلامٍ، ولا يتورّع عن إعلان ذلك على مسمع أخواتها، امتحانًا لفضيلتها وتواضعها، مع أنّه، في الواقع، كان يلتمس صلواتها عن نيّة أُمورٍ تهمّه. وكانت، هي، تعتمد عليه، لتحقيق ما لم يتحقّق، بعدُ، من مطالب العذراء. ولكنّ الرئيس العامّ رفض طلبها بمقابلة ذلك المعرّف، فلم تجد مفرًّا من إطلاع رئيستها على كلّ رؤاها التي كانت ما برحت تكتمها. وتروي تلك الرئيسة أنّها، حيال براءة كاترين، والكرامات التي خُصَّت بها، ساورتها، مرّاتٍ عديدةً، الرغبة في الركوع أمامها، واستغفارها عمّا بدر منها من جفوةٍ وقسوةٍ. في حين كانت كاترين لا تكفّ عن التأكيد بأنّها مجرّد أداةٍ اختارتها العذراء، لأنّها كانت جاهلةً، فلا يشكّ أحدٌ في صدق رؤاها، تمثّلاً بقول القدّيس منصور: «لقد تمّ اختياري، لأنّني لم أكن شيئًا، فلا يستطيع أحدٌ الشكّ بأنّ هذه المنجزات العظيمة هي عمل الله».

ولكنّها لمّا أتت على ذكر العذراء حاملة الكرة الأرضيّة بين

يديها، وقعت الرئيسة في حيرةٍ، مثلما كان قد حار معرّفها الأسبق. إذ كيف التوفيق بين هذا التمثال المطلوب، والصورة المسكوكة على الإيقونة العجائبيّة؟ لا ريب أنّ رفض تحقيق هذا التمثال كان، مدى عقودٍ، محنة كاترين الكبرى، والأشدّ إيلامًا. ولطالما هي ظلّت ممزّقةً بين إطاعتها للعذراء التي اتّخذتها رسولةً لها، وإطاعة معرّفيها الذين كانت تنتابهم همومٌ فنّيّةٌ، واجتماعيّةٌ، ومادّيّةٌ. ولكنّ روعها هدأ، عندما شرع الاقتناع يتسلّل إلى أذهان الرؤساء فبادروا إلى اتّخاذ خطواتٍ ممهّدةٍ لتنفيذ التمثال المطلوب، الذي تسنّى لكاترين مشاهدة نموذجه الأوّل، وكان لها مآخذ على بعض تفاصيله، والذي احتلّ مكانه، أربع سنواتٍ بعد وفاتها، في الموقع الذي هي حدّدته.

ارتياحها إلى تنفيذ رغبات العذراء أشاع في نفسها السلام، فباتت متأهّبةً للرحيل الذي كانت موقنةً بدنوّ أجله. وفيما كانت قواها الجسديّة تخذلها، يومًا فيومًا، كان سجوّ الأعماق يطفو إلى السطح، محوّلاً شيخوختها خريفًا جميلاً. ولكنّ خبرتها القرويّة كانت تؤكّد لها أنّ الخريف هو عتبة

الشتاء والموت. غير أنّها لم تجزع، بل كانت تتطلّع بتوقٍ إلى رحلة المجهول، وإلى لقاء الحبيب. ودأبت، بمناسبة كلّ عيدٍ كنسيٍّ، على التأكيد بأنّه لها العيد الأخير. وكان المحيطون بها يظنّون أنّها تهذي، إذ لم يكن انهيار قواها واضحًا للعيان. وعندما كان يترامى إلى سمعها قول بعضهنّ: «لقد فقدت عقلها»، كانت تجيب، مازحةً: «قيل مثل هذا عن ربّنا».

كلّ يومٍ، كانت تمعن وهنًا وانحطاطًا، وعجزًا، ومع ذلك كانت تزداد صبرًا، محاولةً المثابرة على العمل. وعندما كانت تعجز عن تمويه تعبها وآلامها، ويرثي الآخرون لحالها، كانت تقول: «ألا يستأهل الربّ أن نتألّم إكرامًا له؟».

وشيئًا فشيئًا، أُعفيت من المهمّات الشاقّة التي لم تعد لها طاقةٌ عليها. ولكنّها كلّما استطاعت النهوض، كانت تتولّى مهمّة البوابّة، والقيام ببعض الأعمال الخفيفة، فتتفقّد خزائن ألبسة المسنّين، وتسهر على أطعمتهم، لكي لا يفتقر أحدٌ إلى شيءٍ، وتؤهّل المبتدئات لتولّي المهامّ التي تضطرّ هي إلى التخلّي عنها.

في ١٨٧٦/١٠/٣٠، قالت لإحدى الأَخوات: «سأموت قبل حلول السنة الجديدة، ولن تحتاجوا إلى عربة موتى تنقلني إلى المقبرة».

وبعد خمسة أَيّامٍ، اقتيدت إلى المركز الرئيسيّ للاشتراك في الرياضة الروحيّة التي تابعت كلّ فصولها وطقوسها. كانت تركع للصلاة مثل الراهبات الشابّات، رغم آلام مفاصلها، وتورّم ركبتيها، وتأبى أَيّ عونٍ. ولكنّها ما انفكّت تؤكّد: «هذه آخر رياضةٍ روحيّةٍ أُشارك فيها».

في ١٨٧٦/١١/٢٤، عشيّة عيد شفيعتها، القدّيسة كاترين، جاءتها إِحدى الأَخوات بتلاميذ راغبين بتهنئتها، فوجدوها راكعةً في باحة الدير، تغسل المقاعد المثقوبة التي يستخدمها المسنّون بمثابة مراحيض، والتي كانت تفوح منها روائح مقزّزة جعلت الفتيان يسدّون آنافهم، ولكنّ الأُخت كاترين قالت لهم:

– «يا أَبنائي، هذه هي «بنات المحبّة»، وهذه الكراسي هي جواهرنا».

ثمّ غسلت يديها، ونزعت مئزرها، وقبّلتهم، وباركتهم. وأوصتهم بأن يكونوا عاقلين ومطيعين، لكي تحبّهم العذراء، ووعدتهم بالصلاة من أَجلهم.

الساعات الأخيرة

دُعيت الأخت كاترين إلى المركز الرئيسيّ للاحتفال بعيد سيّدة الحبل بلا دنسٍ. ولدى عودتها، لم يساعدها أَحدٌ على النزول من العربة، فوقعت، وأصيب معصمها بخلعٍ، ولكن لم يلحظ أحدٌ ما حدث لها، واكتفت، هي، بلفّ معصمها بمنديلٍ، وعندما استفسرت رئيستها عمّا حلّ بها، أجابت:

– «هذه هي باقتي. ففي كلّ سنةٍ ترسل إليّ السيّدة العذراء باقةً مثل هذه». وأجابت الرئيسة:

– «إنّ العذراء تدلّلك. وكان الأَمر يستأهل أَن تقصدي المركز الرئيسيّ كي تصلّي لها».

فقد كانت الأُخت كاترين تعدّ كلّ ما يحلّ بها من مِحَنٍ ومصائب، هدايا سماويّةً. مردّدةً القول: «عندما ترسل لنا السيّدة العذراء أَلَمًا، فهي تمنّ علينا بنعمة».

ومنذئذٍ أخذ انحطاط قواها يتفاقم على نحوٍ واضحٍ، وغدت تلزم السرير معظم الوقت، مكتفيةً بالزهيد من الطعام، وغالبًا ما كانت الأُخت المكلّفة بإطعامها تنسى أن تأتيها بوجبة العشاء، فكانت تقتات بما تجده على مقربةٍ منها. وقد استغلّ بعضهم ذلك لاتّهامها بالنهم، رغم إقلاعها عن كلّ طعامٍ، في أيّامها الأخيرة.

في غروب شهر كانون الأوّل، أمست عاجزةً عن الحركة، ولم يكن يُسمح لكلّ الراغبين في زيارتها بالصعود إلى غرفتها. وروت إحدى الأخوات التي كانت تعودها يوميًّا: «كان يؤتى لها بالقربان المقدّس، بين حينٍ وآخر، فسألتُها علامَ لا تلتمس التناول بمزيدٍ من التواتر، فأجابت: «عندما يؤتى إليّ بالربّ، أكون سعيدةً. ولكنّني أُفضّل أن أُعامَل أُسوةً بجميع الآخرين، بلا تمييز».

ولاحظت إحدى أخواتها أنّها تبقى، غالبًا، وحيدةً، في ساعاتها الأخيرة، فرثت لحالها، ولكنّها اعترضت قائلةً:

– «لا تهتمّي لذلك. فلست جديرةً بالرثاء، ولديّ كلّ ما أَحتاج إليه».

يوم ١٨٧٦/١٢/٢٩، مع أَنّ رئيستها كانت دهشةً من سجوّ محيّاها، التمست الأُخت كاترين مسحة المحتضرين، واقترحت إِحدى الأَخوات استدعاء كاهنٍ من كنيسة الحيّ، فاعترضت:

– «أستطيع انتظار مجيء الكاهن اللعازريّ الذي يعرّف».

وكانت المفارقة أنّ ذلك الكاهن اللعازريّ، الذي منحها مسحة المحتضرين، هو الذي تولّى، من بعدُ، مهمّة «محامي الشيطان»، في دعوى تطويبها. وقد جدَّدت، بين يديه، نذورها الرهبانيّة، بعزيمةٍ وسكونٍ. وعندما دعتها رئيستها إلى قول كلمةٍ عن العذراء، همست في أذنها موصيةً بالإِمعان في تكريم العذراء المنزّهة من الدنس، وفي تلاوة المسبحة، والتقيّد بنظام الجمعيّة، كي لا تتضاءل الدعوات، ولا تتراخى الممارسات، مؤكّدةً حرص العذراء على نقاء الفكر والقلب والإِرادة، وعلى الحبّ الطاهر. وحذّرت من التراخي

في رعاية الفقراء، وفي ممارسة التواضع، ومن النزوع إلى التعالي، وحبّ التظاهر.

ولّما طلبت تلاوة صلاة المحتضرين، سألتها الرئيسة:

– «ألا تخشين الموت؟».

فتجلّت الدهشة على عيني كاترين الزرقاوين النقيَّتين نقاء سماءٍ صافيةٍ، وأجابت:

– «علامَ أخشى الذهاب لرؤية الربّ، وأمّه، والقدّيس منصورٍ؟».

وفاة الأُخت كاترين

عشيّة السنة الجديدة، كانت الأُخت كاترين ما زالت حيّةً، ومازحتها رئيستها مذكّرةً بتنبُّؤاتها أَنّها لن تجتاز السنة، فعادت وأَكّدت: «لن أَرى الغد».

ووافى رئيس الجمعيّة العامّ كي يباركها، وكانت قد قابلته، مرّاتٍ عديدةً، في تلك السنة، إِذ كان يُعدّ طبعةً جديدةً للنشرة المتعلّقة بالإِيقونة العجائبيّة، وناقشها بشأن تمثال العذراء حاملة الكرة الأَرضيّة. وقد انتهزت الأخت هذه السانحة الأَخيرة كي تشدّد على واجب إِشراع مصلّى الظهورات للمصلّين والحجّاج.

في المساء، عادتها ابنة شقيقتها مع ابنتيها، فقدّمت للطفلتين الهدايا التي كانت قد أَعدّتها لهما. وقالت لها ابنة شقيقتها، وهي تودّعها: «سأعود غدًا لكي أَتمنّى لك سنةً

جديدةً سعيدةً». فأَجابتها: «إِن جئتِ غدًا، فستريننى، ولكنّي، أنا، لن أَراكِ، لأَنّني سأكون قد رحلت».

وجيء لها بالزاد الأَخير. وسألتها إِحدى الأَخوات:

– «هل ستؤمّنين طلباتي في السماء؟».

وبما أَنّها أَلِفت ألاّ تعد بما لا تتأكّد من القدرة على الوفاء به، أَجابتها:

– «لست أَدري كيف تجري الأُمور هناك!».

وانهمكت، في لحظاتها الأَخيرة، بإِعداد رزمٍ من الإِيقونات العجائبيّة، كي تقوم الأخوات بتوزيعها، وكلّفت إِحداهنّ بإِحضار كمّيّةٍ منها، فجاءت، وقالت لها:

– «أُختي كاترين، هذه هي إِيقوناتك».

ولكنّها لم تُجِبْ، ولم تبدُ عليها أَيّة علامة حياةٍ. فدسّت في يدها الإِيقونات التي تدحرجت على ملاءة السرير، واتّضح أَنّ الأخت كاترين في طريقها إلى الآخرة، واستُدعيت الرئيسة التي هرعت.

كانت الساعة السادسة والنصف مساءً. وقُرع الجرس، مع أنّه لم يكن مألوفًا أن يُقرع إيذانًا بوفاة أحدٍ، ولكنّ وفاة الأُخت كاترين استحقّت الاستثناء. والتفّت نزيلات الدير حول سريرها.

وكانت الأخت كاترين قد رتّبت طقس صلاة الجنازة، طالبةً أن يتلو ٦٣ طفلاً ٦٣ طلْبةً. واعترضت الرئيسة بأنّ صلاة الجنازة لا تتضمّن هذا العدد من الطلبات، فأجابت: «بلى، في صلاة عيد الحبل بلا دنسٍ! وهي مدوَّنةٌ في كتاب صلوات بنات المحبّة!».

فهل كانت الأُخت كاترين ترى، في العدد ٦٣، كما يرى كثيرون، رمزًا إلى عدد السنوات التي قضتها السيّدة العذراء على الأرض: أي ١٥ سنة قبل ولادتها يسوع، و١٥ سنةً بعد صعوده، إضافةً إلى ٣٣ سنةً من الحياة الخفيّة، مع يسوع في الناصرة؟

وسألتها رئيستها: «تريدين، إذن، مغادرتنا؟». فلم تجبْ. كانت «صامتةً، ساعة موتها، كما كانت في حياتها»، فيما

كانت أَخواتها يتلين صلاة المحتضرين، وصلاة الإِيقونة، مردّداتٍ: «يا مريم التي حُبل بها، بلا خطيئةٍ، صلّي لأَجلنا».

وغفت الأُخت كاترين، بسلامٍ، بلا نزاعٍ، ماتت قرويّةً، معتادةً على وقع المواسم، ومسيحيّةً، سعيدةً بالالتحاق بالربّ، وبأمّه، وبالقدّيس منصور». «بسمةٌ، ودمعتان»، وانتهى كلّ شيءٍ. وكانت الساعة السابعة مساءً، في آخر يومٍ من عام ١٨٧٦. وكانت قد دوّنت، في دفتر يوميّاتها، قبل ٣٣ سنة: «... لم يُسمع، قطّ، أَنّ إِحدى بنات المحبّة، أَحبّت الفقراء، وخشيت الموت».

سرّ الأُخت كاترين يعلَن

بموتها لم يعدْ، ثمّة، ما يبرّر إبقاء سرّها مطويًّا. وفي المساء أَعلنت الرئيسة لأَخواتها: «بما أَنّ الأُخت كاترين قد رحلت، فلم يعُدْ، هناك، ما يستوجب الكتمان. أَجل، إِنّها هي التي رأت السيّدة العذراء، وسأتلو عليكنّ ما كتبت بهذا الشأن»، ومنذ ذلك المساء شاع السرّ الذي كتمته كاترين ببطولةٍ. وتبارت أَخواتها في سبيل الحظوة بتهيئتها للدفن، وبالسهر على جثمانها. وحتّى اللواتي كنّ يخشين مواجهة جثمان ميتٍ، اندفعن للسهر على جثمانها. وللصلاة أَمامه. كانت مسجّاةً في غرفة الموتى، المحاذية للمصلّى، بيدها مسبحةٌ والإِيقونة العجائبيّة، وفوق رأسها تمثالٌ للسيّدة العذراء، وعلى جثمانها زنبقةٌ، وباقة زهورٍ، مع أَنّه لم يكن موسم زهورٍ.

ومنذ صباح ذلك اليوم الأولّ من السنة الجديدة،

احتشدت طوابير المعزّين القادمين من كلّ صوبٍ، وكأنّ القوم كانوا ينبعون من تحت الأرض، حسب قول ابنة شقيقة المتوفّاة. وانتصبت راهبتان، إحداهنّ عند رأس السرير، والأُخرى عند طرفه الآخر، لدرء الازدحام، وتولّيتا تبريك الأشياء التي كان القوم يرغبون في تقديسها، بملامسة القدّيسة التي رأت العذراء.

عاشت كاترين بفرحٍ، كانت تستمدّه من صُلب المحن. وفي موتها بدت غافيةً بسلامٍ وسعادةٍ، محافظةً على ليونة أَعضائها. وقد شهدت إحدى الأخوات: «عندما تموت إحدى أَخواتنا يغشانا الحزن، وهذا طبيعيٌّ. ولكن لم تبكِ واحدةٌ منّا، لوفاة الأُخت كاترين، ولم ينتبْنا أيّ حزنٍ».

ولم تُطِق أيّةٌ من بنات المحبّة إيداع جثمان قدّيستهنّ في مقبرةٍ، وكتبت رئيستها، في هذا السياق: «فكرة حرماننا حضورها كانت تفطّر قلوبنا. فقد كان يُخيَّل إلينا أَنّ حماية المنزّهة من الدنس، ستكفّ عن إحاطتنا».

وومضت فكرة دفنها في الدير الذي كانت تخدم فيه،

ولاقت من الرؤساء تشجيعًا. وساهمت زوجة رئيس الجمهوريّة، التي كانت تكنّ للمتوفّاة احترامًا عميقًا، في تذليل العقبات الإداريّة لتحقيق هذا المشروع الذي كان يستلزم موافقاتٍ رسميّةً. وتبرّعت زوجة رئيس الجمهوريّة، أيضًا، بثمن تابوتٍ ثلاثيّ الطبقات، كما تقتضي القوانين من أجل الدفن داخل مكانٍ مأهولٍ. غير أنّ اختيار المكان المناسب للدفن ظلّ موضع حيرة المسؤولين الذين أنفقوا الليل كلّه في الصلاة من أجل حلّ تلك المعضلة. وعندما قُرع جرس الرابعة فجرًا، التمعت في ذهن الرئيسة بارقة الحلّ، إذ تذكّرت وجود حفرةٍ تحت هيكل مصلّى الدير، كان مهندسٌ اقترح ردمها، ولكنّ رئيسةً سابقةً رفضت اقتراحه، ولكأنّ العناية الإلهيّة قد هيّأتها لهذا الغرض.

في الساعة العاشرة من صباح ١٨٧٧/١/٣، احتُفِل بصلاة الجنازة. وتقدّم الموكب فقراء الحيّ، ونزلاء مأوى المسنّين، حاملين باقات زهورٍ، تقديرًا وشكرًا لتلك التي بذلت حياتها في سبيل خدمتهم، تحيق بهم فرق أبناء مريم، واليتامى، وجميع الذين دأبت المتوفّاة على مدّ يد العون لهم. وحُمِل

النعش على الأكفّ، تحقيقًا لنبوءة المتوفّاة، بأنّه لن تكون، ثمّة، حاجةٌ إلى عربة نقل الموتى.

وسارت خلف النعش ابنتا شقيقة كاترين، وقد غمرت نفسهما، عوضًا عن الحزن، مشاعر السعادة التي كانت خالتهما قد شرعت تتذوّقها في السماء. ولم توحِ الأناشيد المتصاعدة بالأسى، بل كان لها نغمة حبورٍ وتسبيحٍ، وكانت الصلاة التي لقّنتها العذراء لكاترين، والتي حُفرت على الإيقونة، هي اللازمة التي تُكرَّر بانتظامٍ وتواترٍ، ويصعّدها القوم باندفاعٍ متزايدٍ.

كثيرون اعتلوا أسطح منازلهم، ليتفرَّجوا لا على موكبٍ جنائزيٍّ، بل على تطوافٍ طافحٍ بالحبور. الدموع الوحيدة التي انهمرت هي دموع الفقراء والمسنّين الذين كان رحيل خادمتهم المتفانية ثقيل الوطء على نفوسهم.

والتفّ حول جثمان الأخت القدّيسة، في المصلّى، زوجة رئيس الجمهوريّة، وابنة أمبراطورٍ سابقٍ، وزوجة عضو مجلس شيوخٍ، إلى جانب حشدٍ من الفقراء، والأولاد.

وجاءت امرأةٌ بابنٍ لها عاجزٍ عن السير، منذ مولده، والتمست بإلحاحٍ إنزاله إلى قبر الأُخت، كي يلمس نعشها. فأُنزل على سلّمٍ من حبالٍ، وما إن وصل إلى أسفل الحفرة ولامس النعش، حتّى هبّ منتصبًا على قدميه وساقيه. كانت تلك المعجزة الأولى التي تتحقّق بشفاعة الأُخت كاترين.

بعد مضيّ أربع سنواتٍ على وفاتها، تحقّقت كلّ رغباتها، إذ احتلّ تمثال العذراء حاملة الكرة الأَرضيّة بين يديها، موقعه في مصلّى الظهور الذي أُشرع، أخيرًا، للحجّاج والزائرين، وحيث احتُفل بالذكرى الخمسين للظهور.

نصبُ التمثال، وفتحُ المصلّى للحجّ كانا يقتضيان موافقة روما، ولطالما كانت الأُخت كاترين قد حضّت رؤساءها على طلب هذه الموافقة، قائلةً: «اطلبوا من روما تنالوا أكثر ممّا تطلبون».

وفي عام ١٨٩٤، قدّم الرئيس العامّ طلبًا بإقامة قداديس علنيّة في مصلّى الظهور، مغفلاً ذكر رؤيا الأخت كاترين والإيقونة العجائبيّة، فجاءه نصّ الصلاة الخاصّة

بالإيقونة. ولكنّ الكردينال المسؤول عن ذلك في روما (Gaetano Aloïsi Mosella) رأى أنّ طلب اللعازريّين كان مغرقًا في التواضع والخجل، فعاتبهم، وطالبهم بتقديم طلب تطويب الأُخت كاترين أيضًا، مضيفًا: «إنّها تتميّز بقداسةٍ رفيعةٍ. وإن لم تطلبوا أنتم تطويبها، فسأطلبه أنا!».

وبُدِّدت اعتراضات البعض على تطويبها بحجّة أنّ حياتها كانت ممعنةً في التواضع والبساطة. ولكن أليس هذا هو جوهر القداسة التي يعلّمها الإنجيل؟ هذا ما أكّده كاتب سيرتها الأوّل الذي قال: «أليست هذه الحجّة عينها هي التي تذرّع بها الفرّيسيّون كي ينفوا رسالة يسوع، لأنّه كان من الناصرة، منتميًا إلى أُسرةٍ فقيرةٍ مغفلةٍ، وكان يأكل ويشرب أُسوةً بعامّة الناس، ويخالط الخطأة؟».

ألم يقل يسوع: «طوبى للفقراء؟» وقداسة كاترين هي قداسة الفقراء، القداسة التي يمارسها كثيرون، ولا يعترف بها أحدٌ».

في ٢٧ تمّوز ١٩٤٧، أعلن البابا بيّوس الثاني عشر، باسم

الكنيسة، قداسة الأُخت كاترين لابوريه. وكانت رئيستها، التي اعترفت بقداسة سيرتها، بعد لأي، وبعد أَن أشبعتها مهانةً في حياتها، قد أَقرّت: «أَرى أَنّها بركة جمعيّتنا، ويطيب لي أَن أَعدّها حارسةً لنا في السماء. إِنّي سعيدةٌ بحفظ رفاتها لدينا، وبتذكّر النعم الفائقة التي حظينا بها. إِنّنا منها نتعلّم كيف يموت القدّيسون، وبأيّة مشاعر ثقةٍ وفرحٍ، يرون دنوّ أجلهم، بعد أَن قضوا حياتهم في خدمة اللّه، اللّه وحده».

قداسة الأخت كاترين

لطالما حجب قداسةَ كاترين صمتُها حول السرّ الذي كتمته ببطولةٍ، سرّ رؤاها وحقيقة كونها هي أداة إطلاق الإيقونة العجائبيّة، التي لاقت انتشارًا مذهلاً.

بها أبرز الروح القدس قداسةً من نمطٍ إنجيليٍّ نادرٍ، قداسةً لا تقوم على الإنجازات الباهرة، ولا على شهادة الدم، ولا على تأسيس الجمعيَّات الرهبانيّة، ولا على العلم اللاهوتيّ الرفيع، قداسةً لا أمجاد فيها، ولا انتصاراتٍ بشريّةً، بل قداسةً قوامها جوهر الإنجيل: الحبّ المتواضع، وبذل الذات، والبساطة التي تميّزت بها رائية شارع باك، والتي دفعت معرّفها على وصفها بالبنفسجة المختبئة تحت العشب.

وربّما توخّى الأب «پيير كوست»، وهو أشدّ كاتبي سيرتها

قسوةً وانتقادًا، الحطّ من قيمة قداستها عندما كتب: «...بساطتها وتواضعها كانا يلبّيان، بأمانةٍ، بساطة ابنة الحقول التي وصفها القدّيس منصور...

«ومع ذلك لا أثر للخارق، ولا للصوفيّة، في مسيرتها. فقد اكتفت بطقوس الورع الشائعة. كانت تقيّةً، ولكنّ تقواها كانت بسيطةً، بحيث كانت بعض زميلاتها، يظهرنَ أوفر منها تقوًى. فالورع الداخليّ كان لها أعظم شأنًا من مظاهر التقوى».

لا ريب أنّ الكرامات التي حظيت بها هي التي أظهرتها للعيان، وإلاّ لظلّت قدّيسةً مجهولةً، على غرار جوقاتٍ من القدّيسين المُغفَلين. والكرامات هي هبةٌ مجّانيّةٌ يمنحها الروح القدس من أجل بناء الكنيسة والجماعات، بإظهار حضوره، وقدرته، وخلاصه. ولكنّ الكرامات غالبًا ما تضع الذين يحظون بها موضع الشكّ والريبة، ولاسيّما من قبل القابضين على مقاليد السلطة، فضلاً عن أنّ العقلانيّة المفرطة، السائدة في أيّامنا تُظهر الكرامات بمظهر الوهم، ما جعل حتّى

مسؤولين كنسيّين يخشون التحدّث عنها، لكيلا يُنعتوا بالتخلّف، والوهن الذهنيّ.

غير أنّ الثمار الروحيّة، والأَشفية الجسديّة التي تؤتيها الأحداث الخارقة تجبر كلّ مؤمنٍ صادقٍ على إعادة النظر، وعلى التأمّل في قول يسوع: «أَشكرك، يا أَبتِ، لأَنّك أَخفيت هذه الأُمور عن الحكماء والعلماء، وأَظهرتها للصغار». فهؤلاء الصغار غير المزدهين بذكائهم هم أَوثق قربًا من جوهر الوجود. ومن هؤلاء الصغار، «كاترين لابوريه»، القرويّة التي ظلّت أُمّيّةً حتّى الثامنة عشرة من عمرها، ومع ذلك اختيرت لتكون أَداة تحوّلاتٍ جوهريّةٍ مذهلةٍ دفعت في تيّارها عمالقةً أَمثال الكردينال نيومن، وأوزانام، وألفونس راتسبون.

رؤى الأُخت كاترين كانت محدودةً في الزمن: بين نيسان وكانون الأوّل ١٨٣٠. أَمّا بقيّة حياتها، فاندرجت في الإِصغاء إلى إِيحاءات السماء، والخدمة الوضيعة السخيّة، موليةً أَعمال الخدمة المنفّرة التي يتقزّز منها الآخرون، الأولويّة على الرؤى والنبوءات.

كراماتها المتميّزة كانت إيثارها أَشدّ القوم عوزاً روحيًّا وجسديًّا، الفقراء والمتألّمين، المنبوذين والمهملين.

لم تصرفها الرؤى عن الإيمان، ولا الكرامات الخارقة عن الخدمة الوضيعة، بل هي دفعتها إليها بمزيدٍ من العزيمة، والغيرة، وسخاء البذل.

ملامح كاترين

لم تُصوَّر كاترين، وهي حيّةٌ، سوى مرَّةٍ واحدةٍ، وهي في سنّ السبعين. والتُقطت لها صورتان غداة وفاتها.

ما يلفت فيها هو نظرها الذي يشعّ طيبةً، ومهابةً، وتطلّعًا إلى العلاء.

بعد موتها، لم ينلْ منها الفناء، وقد شهد الطبيب الذي أَشرف على إخراج جثمانها من القبر عام ١٩٣٣ أَنّ ساعديها، وساقيها ما زالت ليّنة، بعد نصف قرنٍ، ولون عينيها، كان ما برح متألّقًا.

من أَبرز صفاتها البشاشة والبهجة، والذين عرفوها في حياتها وصفوها بأَنّها بشوشةٌ، نشيطةٌ تقرن الحضور المشعّ بالعمق الداخليّ.

عصبيّة المزاجِ، ولكنّها تسارع إلى ضبط انفعالاتها. تنفعل تلقائيًّا، محرّرةً التفجّرات المكبوتة. ولكنّ سلامًا نابعًا من الأعماق، وتمرّسها بالسيطرة على الذات، لا يلبثان أن يهدّئا روعها.

مندفعةٌ، ولكنّها، لكي لا تصبح أسيرة هواها، توجّه طاقاتها، بنظامٍ وانضباطٍ، نحو العديد من المهامّ التي عليها إنجازها. تضطلع بطائفةٍ من المهامّ المتنوّعة، بلا تسرّعٍ، ولكن بلا هوادةٍ. وقد علّمتها خبرتها الفلاّحيّة الانصراف إلى إنجاز عملٍ، ريثما ينضج عملٌ آخر، ويحين قطافه، فتجني كلّ ثمرةٍ في موسمها.

تتخطّى الإرهاق بالصلاة العميقة، وتستمدّ من تأمّل القربان القوّة على مواجهة الصعاب. وفي علاقاتها مع الآخرين، كانت تقرن الرقّة بالاستقامة. تنفر من الثرثرة، وتنزع إلى الصمت، وتمقت أحاديث الاغتياب والنميمة. ولكنّها تجيد التحدّث عن المواضيع العزيزة على قلبها. تقرن البساطة والانفتاح بالكتمان والتحفّظ، بمنأًى عن كلّ تظاهرٍ.

تحت قشرة قسوةٍ تساعدها على كتمان سرّها، وعلى تلافي الانزلاق إلى الأُلفة المفرطة، كانت تشعّ طيبةً شفّافةً.

موغلةٌ في السخاء. تؤثر العمل المفيد على التحليل والتنظير. ذكاؤها كلّه موجّهٌ إلى استشفاف احتياجات الآخرين، وأَجدى وسيلةٍ لخدمتهم. لذلك اتُّهمت، أَحيانًا، بقصر الفكر. ولكنّها كانت تمتلك حدْسًا ثاقبًا، وحكمًا صائبًا على الأَشخاص والأَحداث، وحكمةً في مواجهة المصاعب والظروف الطارئة، وفي التعامل مع الوقائع. وقد أَحسنت التوفيق بين اندفاعاتها الطبيعيّة، ومقتضيات الخدمة والرسالة والمحبّة. وكانت مثالاً في الانضباط.

كانت تأبى التظاهر بالقداسة، كي تبعد عن نفسها كلّ ظنٍّ بأَنّها هي الرائية، بحيث اتّجهت الظنون إلى أُختٍ أُخرى أَكبر منها سنًّا، كانت حريصةً على إبراز تقواها.

لم تكن بطولتها باهرةً، بل هي تجلّت وترسّخت في مواجهة المحن العاديّة اليوميّة التي واكبت مسيرتها منذ طفولتها.

مسيرتها الرهبّانيّة كانت، عمومًا، سعيدةً، ولكنّها تحقّقت في الصليب. قبولها في أحضان جمعيّة «بنات المحبّة» استطارها فرحًا، بحيث شعرت، حسب قولها، أنّ قدميها ما عادتا تلامسان الأرض. ورؤياها للقدّيس منصور في الحلم أضاءت، في خيالها، أحلامًا برّاقةً، سرعان ما أخمدتها حالة الانحطاط النسبيّ الذي تردّت إليه مؤسّسات القدّيس منصور، في أعقاب الثورة الفرنسيّة. هذا الوضع حملها على الاستغراق في صلاةٍ حارّةٍ إلى أن تسنَّت لها رؤية انبعاث حرارة الرسالة الأصليّة، ونموٍّ عدديًّا ونوعيًّا مذهلٍ. وقد تمّ ذلك، إلى حدٍّ كبيرٍ، بفضل رؤياها للإيقونة التي كانت لها أداة الانتشار الواسع.

ولكن، بقدر ما كانت السماء تغدق عليها النعم، كان المسؤولون الأرضيّون يوغلون في مقاومتها؛ فكان معرّفها يصف رؤاها، ومطالب العذراء المبلَّغة بواسطتها، بالأوهام وأضغاث الأحلام، حتّى أمست ترهب كرسيّ الاعتراف.

هذا الإزراء برسالة السماء، التي كان عليها الخضوع له

وتقبّله، كان لها استشهادًا حقًّا، لا ينقذها من تأثيره الوبيل على نفسها سوى الاستغراق في الصلاة. فكان عليها أن تصبر سنتين قبل تحقيق مطالب العذراء بشأن الإيقونة العجائبيّة، وأربعين سنةً لتحقيق تمثال العذراء حاملةً الكرة الأرضيّة بين يديها، فيما لم تتحقّق رغبات العذراء الأُخرى إلاّ بعد وفاتها، وبعد معاناة استشهاد الانتظار والمماطلة طيلة حياتها.

كانت تعدّ أنوار السماء تكليفًا لها، وتعزو الإحجام عن تنفيذ رغبات العذراء إلى تقصيرها، لا إلى أيّ أحدٍ سواها، وهذا الشعور كان يضاعف آلام استشهادها.

وعانت ضيقًا آخر طالما عاناه رؤاةٌ آخرون، ضيقًا ناجمًا عن محاصرة الفضوليّين اليوميّة، وقد كلّفها حرصها على كتمان أمرها تضحياتٍ يوميّةً تفوق طاقة البشر.

وبعد أن كانت رئيساتها الأوليات، اللواتي يحدوهنّ حبٌّ حقٌّ للفقراء، قد قدّرنها أعمق تقدير، لا بل رشّحنها للرئاسة، كان عليها، مدى ١٧ سنةً، تحمُّل قسوة رئيسةٍ أُخرى،

الأخت «دوفيس» (Dufès)، مع أَنّ الأُخت كاترين كانت قد دعمت تعيينها الذي استنكرته معظم الأَخوات الأُخريات. وكانت كلّما تمادت تلك الرئيسة في إِهانتها، تبادر هي إلى تلطيف الجوّ بينهما. وإِذا ما ذكرنا ما طُبعت عليه كاترين من أَنفةٍ قرويّةٍ، وعزّة نفسٍ، يسعنا تقدير ما كان يقتضيه منها سلوكها هذا من تواضعٍ سحيقٍ، وتضحيةٍ قاسيةٍ، في سبيل الصفح والمصالحة.

ولا مفرّ من التنويه بأَنّ بعض الأَخوات المتولّيات مسؤوليّةً في الجمعيّة كان يثير غيرتهنّ وجود تلك الراهبة القرويّة التي أَنعمت عليها السماء بكراماتٍ فريدةٍ، واستحقّت حبّ الفقراء، فدأبنَ على معاملتها بجفوةٍ، ونعتها بالغباء والحماقة، وكانت تقابل ذلك الافتئات بالصمت والبسمة.

كانت تأخذ على عاتقها المهامّ الشاقّة والمقزّزة التي تنفر منها الأُخريات، وكانت رئيساتها، عوضًا عن تقدير عملها هذا يعلنّ: «هي تحبّ ذلك، فهذا هو عملها!»، ويُحِلنَ لها، كلّ ما لا يستسغنَ القيام به.

ولا تغربنّ عن ذهننا عنايتها بالمسنّين التي تستغرق كلّ ساعات نهارها، من الرابعة فجرًا، حتّى التاسعة ليلاً، فضلاً عن سهرها الليالي على المحتضرين. ذلك إلى جانب اهتمامها بالغسيل، وبالحديقة التي حوّلتها بستانًا، وبالمدجنة والمبقرة.

وهي، في كلّ تلك المشاقّ، كانت تكتشف سلام الله.

جسديًّا كانت تبدو قرويّةً متينة البنية، فعُهِد إليها بأكثر المهامّ مشقّةً، وربّما هي التي اختارت هذه المهامّ لكي لا ترهق أخواتها بها. ولكنّها، في الواقع، كانت تعاني، منذ صغرها، آلام المفاصل، ووهن القلب، ولكنّها أَلِفت المكابرة والجهد في التغلّب على آلامها، لئلاّ تُنقص شيئًا من واجبات الخدمة التي وقفت عليها نفسها. وكانت تقابل الآلام بمرحٍ وبسمةٍ، ولكأنّها هديّةٌ من الله. وقد نالت، من هذه الآلام، «كيلاً جيّدًا، ملبّدًا، مهزوزًا، فائضًا». مِحَنُها الصحّيّة كانت متنوّعةً، وكانت تحرص على ألاّ يلحظها الآخرون. وقد احتملتها بصبرٍ بطوليٍّ، وجهدت، حتّى مماتها، في تحويلها إلى شبه رحلةٍ سعيدةٍ، خاليةٍ من كلّ توتُّرٍ أو وجلٍ.

وقد حافظت، محافظةً رائعةً، على نذورها الرهبانيّة: الفقر، والعفّة، والطاعة، وعلى نذر خدمة الفقراء الذي اقتضاه القدّيس منصور من أعضاء جمعيّاته.

قداستها كانت بسيطةً، كانت نورًا شفّافًا. ويمكن اختزالها برؤيتها كلّ شيءٍ، في نور اللّه. قداسة الفقراء، لديها، كانت من البساطة بحيث لا يتبيّنها أحدٌ. كانت فاضلةً من غير أن تدري، كما ينبغي أن تكون، بدافعٍ داخليٍّ، يحاكي الإلهام لدى موسيقيٍّ عبقريٍّ. وقد ازدهرت فيها الفضائل التي دعا إليها القدّيس منصور: البساطة، والتواضع، والتضحية، والرقّة، والغيرة، أي كلّ ما يكوّن المناخ الملائم لازدهار الحياة المسيحيّة الحقّة. وقد أضافت إلى ذلك المودَّة القلبيّة، فقد كانت كلّ أفعالها تنبع من قلبها، مقترنةً بما يتعيّن من احترامٍ.

تواضعها كان منزّهًا من كلّ رخاوةٍ أو تذلّلٍ. كانت تتقبّل، بلا اعتراضٍ، تأنيبًا لم تستأهله، ولم تدّعِ، يومًا، الحقّ في احتلال مراكز عليا في جمعيّتها. وما كانت تبتئس عندما يشهّر الآخرونَ بعيوبها، جاهدةً في إخفاء صنائعها وروائعها.

في غروب حياتها اعترفت: «لم أكن سوى أداةٍ. لم تظهر العذراء من أجلي، فقد كنت أُمّيّةً تمامًا. وما أعرفه الآن تعلّمته في الدير الذي انضويت إليه. وإن اختارتني العذراء، مع جهلي، فلكي لا يخامر أحدًا شكٌّ بأنّها هي مصدر كلّ ما جرى لي».

أمّا علاقاتها الإنسانيّة فتميّزت بالمسؤوليّة، في التواضع والمحبّة. كانت تتحاشى عن إدانة الآخرين أو الحكم عليهم، ولكنّها كانت تكتشف فضائلهم وتشجّعها وتُفلح في قهر الشرّ بالخير.

وكانت تؤثر بمحبّتها الأخوات اللواتي يواجهنَ مصاعب. فكان مجرّد حضورها إلى جانبهنّ يشيع في نفوسهنّ السلام والعزيمة، مثلما كانت تسيل السلام والطمأنينة في نفوس المسنّين.

كانت تشدّ أزر الأخوات المبتدئات، كلّما اصطدمن بواقعٍ لم يتوقّعنه، أو عندما يعانين فراق الأهل، في مستهلّ عهدهنَّ بالرهبنة. وحيال المصاعب التي يواجهنَها، كانت تزوّدهنّ

بالعزيمة، بمجرّد قولها، بنبرةٍ تفيض سكونًا وموّدةً: «لا تضطربنَ».

كانت تعدّ حتّى الثياب والأَمتعة الخاصّة ملكًا للفقراء، فتدعو إلى تجنّب إتلافها، وتعكف على إصلاح كلّ ما تمزّق، بعنايةٍ وفنٍّ، كي تُستخدَم استخدامًا لائقًا.

لم تحبَّ امتلاك أَيّ شيءٍ، مكتفيةً بالضروريّ الذي لا غنى عنه. لدى وفاتها اتّضح فقر خزانة ثيابها وفراغها، وانصبّ اللوم على رئيستها، التي تذرّعت بالتأكيد أَنّ كاترين لم تشكُ، يومًا، نقصًا أَو افتقارًا إلى أيّ شيءٍ. وقد شهدت إِحدى أَخواتها أَنّه: «لم توجد، قطّ، راهبةٌ أَشدّ إِيغالاً منها في الفقر».

وكانت حارّة المبادرة، تحسن استخدام الكلمة التي تأسر القلوب، وتقديم الخدمات الطفيفة التي لا تخطر لأَحدٍ ببالٍ، حريصةً على عدم هدر دقيقة وقتٍ، أو فتات طعامٍ، وعلى إِصلاح ما كُسِر، ورتقِ ما تمزّق، ولَمِّ ما أُهمل وهُدر. وقد برهنت عن جاهزيّةٍ وسخاءٍ دائمين، وعن كَلَفٍ بالانضباط.

وكان لها تأثيرٌ آسرٌ على الأَطفال. فهي، من غير أَن تتردّى إلى الصبيانيّة، احتفظت بطفولة النفس، استقامةً وبساطةً. ومنذ صغرها، كانت هي التي تشيع السلام والمصالحة بين أَترابها. وكانت عنايتها بأَخيها الأَصغر، المعاق جسديًّا وذهنيًّا، مدرسةً، تمرَّست فيها من الاعتناء بالصغار والضعفاء.

وكلّما اجتازت فناء الدير كان الأَطفال يهرعون إليها، ويتشبّثون بثيابها، مأسورين بنظرتها الرقيقة، وبابتسامتها الساحرة.

ولطالما أَولت أبناء العمّال والفقراء عنايةً خاصّةً، وأحاطت بعنايةٍ رقيقةٍ «أَبناء وبنات مريم»، الذين أَسّس جمعيّاتهم معرّفها الأسبق، الأَب «ألاديل». وقد درّبت بنات شقيقتها وحفيداتها على رفو الثياب لتوزيعها على المحرومين، وحرّضتهنّ على عيادة المرضى.

ولئن هي حرصت على أَن يتلو صلوات جنازتها ٦٣ طفلاً، فلأَنّها، في قرارة نفسها، بقيت طفلةً.

وكانت تولي اهتمامًا خاصًّا بالمحتضرين، ولكم صالحت

منهم مع اللّه، وهم على عتبة الأَبديّة. ولطالما حرَّضت على الصلاة من أَجل راحة نفوس المتوفّين. وعندما كان فرع جمعيّتها ينظّم رحلاتٍ إلى فروعٍ أُخرى، كانت تتنازل عن مكانها لأُخرياتٍ مبتدئاتٍ، مؤثرةً البقاء إلى جانب المرضى. الزيارة الوحيدة التي لم تكن تتنازل عنها، هي التخشّع أَمام الهيكل، منبع النعم، حيث كانت تتزوّد بالقوّة والمنعة.

وكانت تحيط باهتمامٍ خاصٍّ المسنّين العُتاة في إِلحادهم، والمنفّرين بسلوكهم. فالخطيئة تستثير حنقها، ولكنّها تحدب على الخطأة، فهم طليعة جرحى خطاياهم.

كانت تستقبل الفقراء بعطفٍ، ولكنّها تحسن التملّص من الفضوليّين الذين لا همّ لهم سوى الثرثرة، ومحاولة هتك سرّها. ومع ذلك حرصت دائمًا على أَلاّ تجرح أَحدًا. ولكن كان يجرحها عجزها عن تلبية كلّ طلبات المحتاجين.

الصلاة كانت لها مصدر قوَّةٍ، وصبرٍ، ونورٍ، وطاقةٍ على الاضطلاع بالمهامّ اليوميّة المرهقة. في الصلاة كانت تغطس في غمار اللّه. وقد شهدت إِحدى أَخواتها: «كلّما تسنّى لها،

كانت تهرع إلى المصلّى، فتخلع مئزرها خارجًا، وتنحني انحناءةً عميقةً حافلةً بالاحترام، أمام الهيكل، وتلقي نظرة محبّةٍ بنويّةٍ على تمثال السيّدة العذراء، ثمّ تركع؛ وتخرج، بعد لحظاتٍ، مشرقة المحيّا، فتستعيد مئزرها وعملها. وكم كان ذلك مؤثّرًا! وقد شاهدتُها، أحيانًا، تلج المصلّى، والدموع تترقرق في مآقيها، وتخرج باشّة الأَسارير».

صلاتها كانت مشعّةً. من يشاهدها تصلّي، كان يصلّي تلقائيًّا، ويتلقّى عدوى الحضور الذي كان يسكنها. وقد أَلِفت الفتيات مراقبتها، خلسةً، وهي تصلّي، فتبدو لهنّ وكأنَّها تخاطب كائنًا حيًّا. وكنّ يوكلن إلى صلاتها نجاحهنّ في دراستهنّ ومشاريعهنّ.

قوَّتها كانت تستمدّها من الربّ، والعذراء، والقدّيس منصورٍ.

القدّيس منصورٌ هو الذي استدعاها في الحلم، وقال لها بمرحٍ: «إنّك تهربين منّي الآن، ولكنّكِ ستسعدين بالمجيء إليّ». وشيئًا فشيئًا، اكتشفت نظرته، وقلبه، ومسلكه في خدمة

«أَسيادنا الفقراء». وكان القدّيس منصور يؤثر نموذج الأخت كاترين، نموذج القرويّات الطيّبات اللواتي يحببنَ اللّه، ويحببن الفقراء والمحتاجين، ويخدمنَهم بعرق جبينهنّ، وعزيمة سواعدهنّ. وقد قيل عنها إنّها ابنة القدّيس منصور بامتيازٍ.

أمّا السيّدة العذراء، فكانت قد لجأت إلى أمومتها، إثر وفاة أُمّها، ومنها استمدّت، في شبابها وكهولتها، سلام النفس، ومنعة العزيمة. ومنها تلقّت رسالةً فريدةً للعالم أَجمع، ولكلّ الأَزمنة. وقد اندرجت حياتها كلّها في حضور أُمّها العذراء. وما كانت مطالبتها المطّردة والملحّة بفتح مصلّى شارع باك للعموم، إلاّ رغبةً منها في أَن يظفر الجميع بفيض نِعَم الأمّ السماويّة.

تلك الأُخت الصموت كانت تهوى التحدُّث إلى الأُمّ السماويّة بإيجازٍ، ولكن بكلّ قلبها. وكانت ترى في الصلاة التي لقّنتها إيّاها العذراء، والتي دُوّنت على الإيقونة العجائبيّة: «يا مريم التي حُبل بها بلا دنسٍ...» انتصار النعمة لدى تلك المخلوقة الفريدة.

وكانت تولي تلاوة المسبحة عنايةً فائقةً، كما يتّضح من شهادة رئيستها بهذا الشأن: «كانت تدهشنا، دائمًا، كلّما تلونا المسبحة جماعيًّا، بنبرتها المفعمة وقارًا وخشوعًا التي تلفظ بها عبارات السلام الملائكيّ.

«وزادنا إدراكًا لمدى ما كانت توليه لهذه الصلاة من احترامٍ وورَعٍ، أنّها، مع كلّ ما عُهِد عنها من تواضعٍ وتحفّظٍ، لم تكن تتمالك عن شجب الخفّة وانعدام التركيز المواكبَيْن لتلاوتنا تلك الصلاة التي تتميّز بقدرٍ وافٍ من الروعة والجدوى».

أمّا يسوع، فهو الذي ظهر لها في القربان المقدّس، قبل ظهور العذراء لها، وكان الصليب المحفور على ظهر الإيقونة، هو رمز كلّ حياة كاترين.

كانت ترى الله وتعبده في كلّ شيءٍ، وفي كلّ إنسانٍ. ولم يكن لها الله فكرةً مجرّدةً، بل كان حضورًا. ولم تكن تتوقّف عن الصلاة، لتأكيد هذا الحضور، وتتّهم ذاتها بالتقصير، إن

لم تفعل. وقد وصف أَحد معرّفيها حياتها بأنّها «حميميّةٌ كثيفةٌ مع اللّه». اللّه في كلّ شيءٍ، وكلّ شيءٍ من أَجل اللّه. فيه تضع كلّ شيءٍ، ولا ترجو شيئًا إلاّ منه. ترى اللّه في القدّيسين، قدّيسي السماء، وقدّيسي الأَرض المغفلين، وحتّى في الخطأة المدعوّين إلى القداسة، في الأَحداث السعيدة، وفي الأَحداث التعيسة، في المِحَن والآلام، وخاصّةً في المرضى، والمسنّين، في الكهنة والرؤساء. وقد أَسرّت لإِحدى الأَخوات، ذات يومٍ، أَنّ رؤية اللّه في الرؤساء هو سرّ سعادة الحياة الرهبانيّة. وهكذا كانت لها أَشدّ المعاكسات إِزعاجًا ترتدي وجهًا مشرقًا. ولطالما قالت: «عندما ننفّذ مشيئة اللّه، لا يعرف الملل إلى نفسنا سبيلاً».

حبّ اللّه كان لها كلّ شيءٍ، فكانت حياتها حبًّا. ولم تحفل بأَنظار الناس إليها، إِذ كانت نظرة اللّه حسبها.

اللّه كان راحتها، وكانت متّحدةً به في أَدنى أَعمالها. وهذا ما يفسّر موتها بسلامٍ صافٍ. لم يكن اللّه لها سرًّا لا وجه له. بل كان يسوع المسيح الذي تجسّد بين البشر، بين

الفقراء. وقد ظهر لها ملكًا مجرّدًا من تاجه، متألّمًا، مصلوبًا حبًّا بالبشر.

منذ مناولتها الأولى، استولت الإفخارستيّا على قلبها، وكانت دافع دعوتها. كانت تعود من مائدة الربّ، وهي في شبه انخطافٍ، ولا شيء يلهيها عن حضور اللّه. المناولة كانت لها عبادةً، وعونًا على الخدمة.

تسامحها مع المسنّين السكارى كانت تبرّره برؤيتها اللّه فيهم. ولطالما أكّدت: «ما أجمل رؤية الفقراء في اللّه، وفي تثمين يسوع لهم!».

وهي لم تقتصر على رؤى فاتنةٍ ليسوع، بل رأته في ثنايا العلاقات الأرضيّة، في الخدمة اليوميّة الوضيعة، وعلى مائدة الخطأة.

مزار الإيقونة العجائبيّة
في «شارع باك» بباريس

يأتي هذا المزار في المرتبة التاسعة بين المزارات الكاثوليكيّة العالميّة الأكثر استقطابًا للحجّاج، ويؤمّه، سنويًّا، نحو مليون ونصف مليون حاجٍّ وزائرٍ.

ومع ذلك يدهش زائره، منذ وهلة ولوجه الأولى، بكثافة الصلاة فيه، وبجوّ الخشوع، وبهيمنة السرّ القدسيّ عليه، وعلى المصلّين فيه. وقد لاحظ الفيلسوف الفرنسيّ «جان غيتّون»: «فيه الصلاة بكلّ صفائها، الصلاة المستمرّة، العبادة الممتزجة بالتوسُّل. أمرٌ يصعب تحديده. ثمّة ضروبٌ من الصمت، تمتماتٌ، حركاتٌ محيّرةٌ: رجالٌ ونساءٌ من كلّ جنسٍ، ومن كلّ ثقافةٍ، يركعون أمام مقعدٍ ثاوٍ في ركنٍ، يقبّلونه، ويودعونه بطاقاتهم. حدَثٌ يبدو صبيانيًّا، ولكأنّه

عودةٌ إلى الوضع الخرافيّ، إلى السحر، في بلدٍ يوصف بأنّه مثقّفٌ، متحرّرٌ، عقلانيٌّ. وقد رأيت، هناك، عالِمًا نوويًّا، تملأ شهرته أوروبّا كلّها...

«هنا الصمت مطلقٌ، ولكأنّه صمتٌ في قلب الصمت، بحيث يبدو الأَشخاص كالتماثيل، بعيدين عن أَجواء المسرح، فلا نحّاباتٌ، ولا ساحراتٌ.

«يبدو المصلّون، في هذا المزار، ولكأنّهم شاكرون، مسبّقًا، لما هم واثقون من الحصول على ما يطلبونه، لكأنّهم يمتلكون ما يلتمسون، كأنّهم زهورٌ تتفتّح وتزهو. ومثلما تبدو الأَزاهير في الحديقة تجهل إِحداها الأُخرى، هنا، أَيضًا، لا يتبادل الزائرون الأَحاديث، ولكأنّ الصدفة هي التي جمعتهم في مكانٍ واحدٍ... والكهنة مختلطون بجموع المؤمنين، في سلامٍ وصمتٍ... لا شموع ولا تجارة... والقوم يقدمون إلى هنا، فرادى وجماعاتٍ، ولا يبتغون ترك أثرٍ...».

رموز الإِيقونة العجائبيّة

تُعَدّ هذه الإِيقونة موجزًا مكثّفًا للتعليم المسيحيّ، فوجهها يمثّل الأمّ المدعوّة إلى تجسيد اللّه، وتكوين قلبه البشريّ، وشمس عدله التي تُشعّ على الورى مجده وحبّه.

أَمّا على جانبها الآخر، فيتجلّى الصليب، رمز الحبّ ونبع الخلاص، ممثّلاً في قلب يسوع المكلّل بالأشواك، وقلب مريم المطعون بحربةٍ. فالصليب والحبّ متكاملان، والقلبان مرتبطان بالصليب، ومرتبطان أَحدهما بالآخر، متضامنان، يوحّدهما التعاطف مع آلام البشر، تعاطفٌ هو ملء الحبّ وميزته. وتبدو العذراء كأَنّها تتكبّد حمل الصليب، وتباركه في آنٍ واحدٍ.

هذه الإِيقونة هي اختزالٌ للكتاب المقدّس، حيث يروي سفر التكوين إِغواء عدوّ اللّه لحوّاء، وإِغواء حوّاء لآدم، وعقاب اللّه لهما، وإِنباءَه بحوّاء جديدةٍ ستصارع الحيّة،

ويتحقّق نصرها النهائيّ، في آخر الكتب الملهمة، سفر الرؤيا، الذي يعلن غلبة الخير على الشرّ، بسحق العذراء للرقطاء النجسة، الظالمة، الماجنة. هذا الصراع يملأ تاريخ الخلاص: صراعٌ بين عالَمَيْن، عالمٍ يجعل الإنسان مركز الوجود، ويُقصي اللّه، وعالمٍ يضع الإنسان في مكانه الحقّ، ويخضعه للّه، وحيث غالبًا ما يجرح أَبناءُ الشرّير أَبناءَ اللّه، إلى أَن تنتصر المرأة الملتحفة بالشمس، والتي تطأ القمر بقدمها.

في ظهور ١٨٣٠/١١/٢٧، تراءت العذراء حاملةً كرةً ترمز إلى كوكب الأَرض، يعلوها صليبٌ ذهبيٌ صغيرٌ. وقد توخّت العذراء، بذلك، تأكيد حبّها لسكّان الأَرض، الذين تحملهم في قلبها، وتقدّمهم للآب. وقد شدّدت على رغبتها في أَن ينهض هيكلٌ وتمثالٌ تذكارًا لهذه التقدمة.

وكانت العذراء، في ظهورها، جالسةً على عرشٍ. أَفليست هي ملكةً، ملكة الأَرض وملكة قلوب البشر؟

يقول الفيلسوف الفرنسيّ «جان غيتّون» إنّه لو كُلّف أعظم عباقرة الشعر والرسم بابتكار إيقونةٍ تحتوي أكبر قدرٍ من المعاني، في أقلّ عددٍ من الإشارات، ويقوى على إدراك فحواها كلّ مسيحيٍّ، أيًّا كان وضعه وموقعه: في قمّة الفكر، أو في خدمة الجماهير، ماديًّا أو ناسكًا، لما توفّقوا إلى إبداع مثل هذه الإيقونة التي أملتها العذراء على كاترين لابوريه.

«في هذه الإيقونة، مريم هي الوسيلة لرؤية ألوهة يسوع، وللاتّصال به، فضلاً عن أنّ هذه الإيقونة تنطوي على حقائق أساسيّةٍ، أعلنتها العذراء، وستواصل إعلانها تباعًا.

«إنّ ما تزخر به هذه الإيقونة من رموزٍ، تجعل من تقلّد هذا الشيء المفتقر إلى القيمة المادّيّة، الزريّ ظاهريًّا، والذي قد يبدو خرافيًّا، ومن حمله بورعٍ، منبعَ قوّةٍ، وثقةٍ، وتركيز الأقصى في الأدنى، كما أنّ رمز الصليب يخاطب الجميع في كلّ مكانٍ، وفي كلّ البلدان، أيًّا كان مستوى ثقافتهم، وطهرهم أو نجاستهم، وتقواهم أو ذنوبهم.

هذه الإيقونة هي رمزٌ للكلّ، نقطةٌ تملأ كلّ المكان، ودليل وحدةٍ شاملةٍ. فقد يتقلّدها العالم والجاهل، الحكيم والأبله، المؤمن والملحد، كما فعل ألفونس راتسبون، بدافع المجاملة، وهو لا يوليها أيّ شأنٍ، ومع ذلك قلبت كيانه ومصيره، في لحظاتٍ».

تواريخ مضيئة

١٨٣٦/٥/١: خوري أَرس يبارك، في كنيسته، تمثالاً يكرّم ظهور الإِيقونة العجائبيّة، ويكرّس رعيّته للعذراء التي حُبِل بها بلا دنسٍ.

١٨٤٥/٨/٢٢: نيومن يصرّح: «في هذا النهار قرّرتُ تعليق الإِيقونة في عنقي».

١٨٥٤/١٢/٨: البابا بيّوس التاسع يعلن عقيدة الحبل بلا دنسٍ.

١٩٣٣/٣/٢١: نقل رفات كاترين إلى «شارع باك».

١٩٣٣/٥/٢٨: إِعلان كاترين طوباويّة.

١٩٤٧/٧/٢٧: يعلن البابا بيّوس الثاني عشر قداسة كاترين.

١٩٨٠/٥/٣١: البابا يوحنّا بولس الثاني يحجّ إلى مزار «شارع باك» ويدشّن المقام المجدّد.

١٩٨٠/١١/٢٧: الذكرى المئة والخمسون لظهور العذراء الذي أَدّى إلى الإِيقونة العجائبيّة.

مزرعة آل لابوريه التي أدارتها كاترين منذ عمر الثانية عشرة

مهد كاترين في غرفة والديها

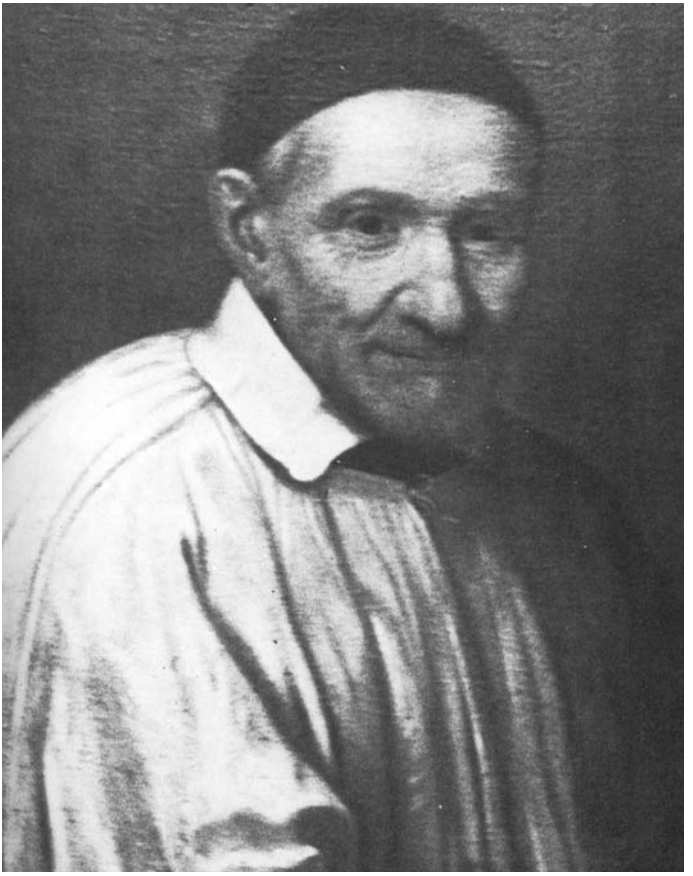

القدّيس منصور دي پول

نسخٌ أُولى من الإيقونة العجائبيّة

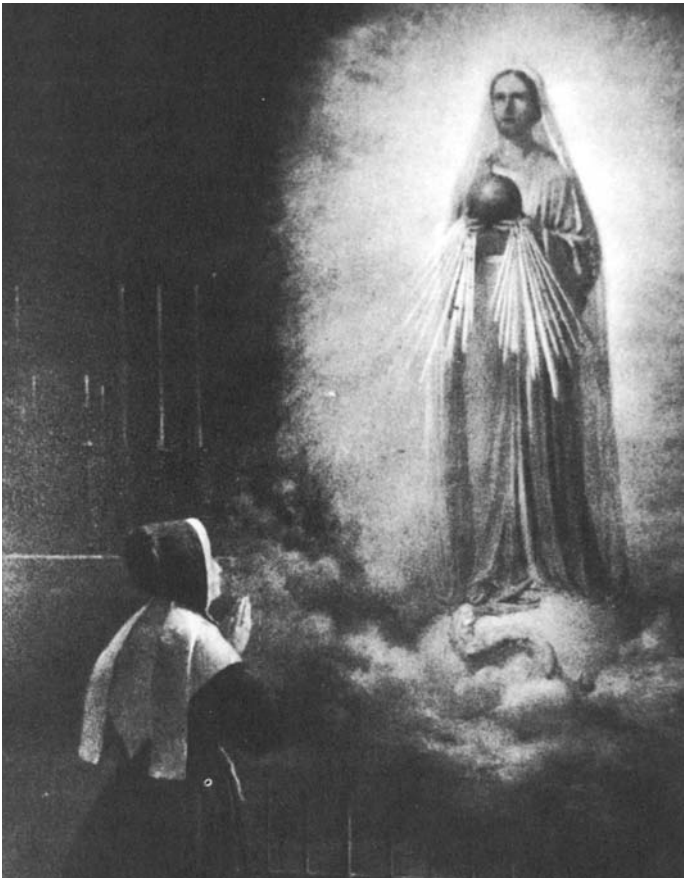

لوحةٌ للعذراء، حاملةً الكرة الأرضيّة، كما ظهرت لكاترين

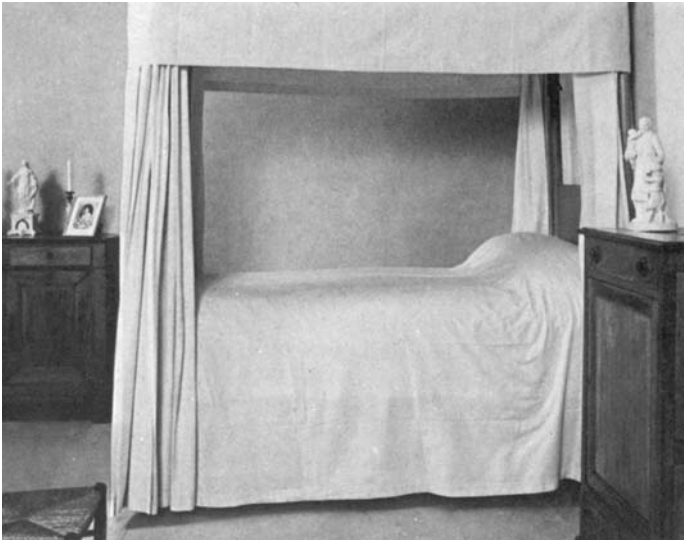

السرير الذي توفّيت عليه كاترين

صورة لكاترين غداة وفاتها (١٨٧٧/١/١)

الصورة الفوتوغرافيّة الوحيدة لكاترين، قُبَيْل وفاتها (عام ١٨٧٦)

مصلّى شارع باك في باريس

لوحة تمثّل مصلّى شارع باك عام ١٨٣٠ في زمن الظهور

الفهرس

أسرة «لابوريه» (LABOURÉ)	٧
طفولةٌ شاقّةٌ في كنف الأمّ السماويّة	١٠
حلمٌ ودعوةٌ	١٧
الإكليريكيّة	٢٨
حدَثٌ جَلَلٌ يتزامن ووصول كاترين إلى شارع باك	٣١
كاترين وقلب القدّيس منصور	٣٧
ظهوراتٌ ورؤًى وانخطافاتٌ	٤٠
ظهور العذراء	٤٢
رؤيا الإِيقونة	٥١

رؤيا ثالثةٌ وأخيرةٌ ٥٥
ارتداء الثوب الرهبانيّ ٥٧
في دار عجزة «أَنغين» (Enghein) ٥٩
إقرار سكّ الإيقونة ٦٢
مطالب لم تُنفَّذ ٦٥
تصنيع الإيقونات ٦٧
انتشار الإيقونة المذهل ٦٩
دعوى كاترين ٧٤
خدمة مستمرَّة ٧٩
النذر ٨١
موسم الجنى ٨٤
ثمارٌ في بستان القدّيس منصور ٨٩
انطلاقةٌ وعقباتٌ ٩٩

سرّ الأُخت كاترين ١٠٥
تمنّي تحقيق سائر طلبات العذراء ١٠٨
محنة ١٨٧٠ ١١١
تجرّدٌ، وتواضعٌ، وكراماتٌ ١١٨
الساعات الأخيرة ١٣٠
وفاة الأُخت كاترين ١٣٤
سرّ الأُخت كاترين يعلن ١٣٨
قداسة الأخت كاترين ١٤٥
ملامح كاترين ١٤٩
مزار الإِيقونة العجائبيّة في "شارع باك" بباريس ١٦٦
رموز الإِيقونة العجائبيّة ١٦٨
تواريخ مضيئة ١٧٢

ظهور السيّدة العذراء

لألفونس راتسبون

من هو ألفونس راتسبون؟

هو سليل أُسرة راتسبون اليهوديّة، التي كانت تنتمي إلى مجتمع مدينة ستراسبورغ الراقي، ومجتمع منطقة الألزاس عمومًا، ولها في المجتمع اليهوديّ الفرنسيّ موقعٌ مميّزٌ. فجدُّه لوالدته «أديلائيد» (Adelaïde) الذي تزوّج، عقب وفاة زوجته الأولى، أرملة جدّه لأبيه، جان راتسبون، هو «نفتالي سيرف بير» (Naftali Cerf Beer) الذي عمل كثيرًا في سبيلِ تحرير يهود فرنسا من القيود المفروضة عليهم، وحقّق ثروةً طائلةً، استطاع، بفضلها، الظفرَ بمرسومٍ ملكيٍّ يتيح له، ولجميع ورثته، التملّك في كلِّ أرجاء المملكة، وحقّ الحصول على ألقابٍ شرفيّةٍ. أقام علاقاتٍ وثيقةً مع أرفع مسؤولي الدولة، وكان واسع الاطّلاع على الشؤون اليهوديّة، حتّى غدا حكَمًا في خلافات اليهود الداخليّة.

وُلد ألفونس في الأوّل من أيّار ١٨١٤، ولكأنّ ولادته في هذا التاريخ بالذات، أي في مطلع الشهر المريميّ، كانت إشارةً إلى علاقةٍ مستقبليّةٍ مميّزةٍ بالسيّدة العذراء.

كان الحادي عشر في لائحة مَن وضعتهم أُمّه، وتاسع أبناء والديه الأحياء، فشقيقتاه الأولى والثانية، تُوفّيتا في المهد.

يوم ختانه، أُطلق عليه اسم «طوبيّا»، الذي لم يذكره أحدٌ. ولكنّ ألفونس كان يرى فيه رمزًا ذا دلالةٍ. فطوبيّا كان صديق الفقراء، كما كان ألفونس، ولمّا ابتُلي بالعمى، أعاد له الملاك روفائيل الرؤية.

كانت أسرة راتسبون تحتلّ واحدةً من أفخمِ عمارات مدينة ستراسبورغ، حيث كان لوالد ألفونس، ولعمّه لويس، مصرفٌ، وحوانيت، ومخازن.

عام ١٨١٨، تُوفّيت والدته «أديلائيد»، ولها من العمر تسعةٌ وثلاثون عامًا، وكان ألفونس في الرابعة والنصف من سنواته. وقد كتب، بعد سنين طويلةٍ: «موت أمٍّ هو، في أغلب الأحيان، زوال أُسرةٍ».

والده، أوغست راتسبون، كان من أَعيان الطائفة اليهوديّة، ولكنّه كان قليل الالتزام بممارسات دينه. اختير رئيسًا للمجمع اليهوديّ، الذي كان يُعنى بشؤون الطائفة المادّيّة. ومن المحقّق أنّ هذه المهمّة ما كانت لتُوكَل إليه، لو لم يكن حريصًا على ختانة أبنائه الذكور، وعلى الاحتفال بيوم «كيپور»، وعلى أَمّ الكنيس في المناسبات الكبرى. وكانت أحداث الأُسرة الكبرى من ختانٍ، وخطبةٍ، وزواجٍ، وجنازاتٍ، تندرج وفقًا للتقاليد اليهوديّة، وتضفي على حياة الأُسرة صبغةً دينيّةً. ولكنّ هذه الصبغة كانت مجرّدَ قشرةٍ سطحيّةٍ، فالأُسرة كلّها مندفعةٌ في تيّار المجتمع البورجوازيّ، والنزعات العلمانيّة. اثنان من إخوة ألفونس البالغين، أدولف وتيودور، كانا منضمّين إلى الماسونيّة، ومعظم أفراد الأُسرة الكبار كانوا متأثّرين تأثّرًا عميقًا بفلاسفة القرن الثامن عشر، ولا سيّما ڤولتير وروسّو. وقد كتب ألفونس، لاحقًا: «منذ عامي الخامس عشر حتّى عامي الثالث والعشرين، عشتُ بلا أيّ دينٍ، بل حتّى بمنأًى عن الله». كانت أسرته قد لقّنته اللّغة العبريّة، من أجل تلاوة الصلوات بها. ولكنّه سرعان ما سئِم

ترداد ما لم يكن يفهمه، وصار يتلو الصلوات بالفرنسيّة، ثمّ ما لبث أن أَهملها نهائيًّا. كان من شأن أُمّه تنشئتُه على مبادئ دينه، ولكنّها رحلت وهو في الرابعة، ولم يعرف جدّته لأمّه التي كانت صارمةً في أمور الدين.

وشيئًا فشيئًا، حلّ الالتزام الاجتماعيّ محلّ التديّن والعبادة.

اتّسم ألفونس، في صباه، برهافة المشاعر والسلوك، والتلقائيّة، والقدرة على اكتساب القلوب، وبالنهم إلى العيش الرغيد، والرغبة في امتلاك كلّ ما يشتهي، والشغف باكتشاف الآفاق البعيدة.

وبالإجمال كان أَفراد أُسرة راتسبون مثالاً فريدًا للمحبّة المتبادلة، والتآلف، والاتّحاد، إلى أن طرأ حدثٌ غير متوقّعٍ شقّ هذه اللّحمة، وشدخ هذه الألفة، عندما اعتنق شقيق ألفونس الأكبر، تيودور، العقيدة الكاثوليكيّة.

اعتناق تيودور راتسبون العقيدة الكاثوليكيّة

كان تيودور آنذاك، في الخامسة والعشرين من العمر، ولطالما صرّح أنّ دينه الوحيد كان، في صباه وشبابه، حبّه لأمّه. وكان في السادسة عشرة عندما رحلت والدته، وهو طالبٌ في باريس، فأَحدثت وفاتُها في نفسه فراغًا راح يجهد في ملئه.

في الخامسة عشرة كان قد تولّه بحبّ رفيقة دراسةٍ له، من أُسرة روتشيلد، وتواعدا على الزواج. وقد وقاه هذا الوعد من عثرات المراهقة وفخاخها.

غير أنّ ذويه نقلوه إلى باريس للتدرّب على الأعمال المصرفيّة، ولكنّه سرعان ما أَظهر مقتًا لكلّ ما له بالمال صلةٌ، ولم يُبدِ أيَّ ميلٍ إلى هذه المهنة، بل كانت تشدّه ميولٌ أدبيّةٌ،

وكان أروع حلمٍ يراوده هو أن يتبوّأ مقعدًا في الأكاديميّة الفرنسيّة، بين الأدباء الخالدين.

واستهوته، فترةً، حياة النسك، فمارسها في قريةٍ معزولةٍ، عاكفًا على الأصوام، وعلى ترويض النفس والجسد. غير أنّ مطالعته لكتابات ڤولتير وروسّو، حفرت في نفسه فراغًا جديدًا، وأشعلت فيها ثورةً على فكرة الألوهة.

وحاول الانغماس في صخب الحياة الاجتماعيّة، على إثر ولهه بممثّلةٍ رائعة الجمال. ولكنّ قلبه ظلّ يشكو الفراغ والعطش إلى أن التقى «لويس بوتان» (Louis BEAUTIN)، وهو أستاذ فلسفةٍ مرتدٌّ من العقلانيّة المتشدّدة إلى مسيحيّةٍ راسخةٍ، مضطرمة الإيمان. فعثر على جوابٍ لتساؤلاته، كان يَنشده بتوقٍ ودأبٍ.

وتسنّت له، في تلك الفترة من مسيرته، عروض زواجٍ متألّقةٌ عديدةٌ، كانت تعده بسعادةٍ غامرةٍ، أكيدةٍ. ولكنّ كابحًا خفيًّا كان يلجمه، وقد عبّر عنه بقوله:

«كان داخلي ساحةَ حربٍ تتصارع في ميدانها أحكام طفولتي المسبّقة، وإيماني الجديد، وتتصادم بعنفٍ. كنت أخشى أن أُصلّي لكيلا أُغضبَ إلهَ إبراهيم، إن أنا استغثتُ بإله المسيحيّين... وكانت تلك العاصفة هوجاءَ، عنيفةً... وأخيرًا تفجّر اسمُ يسوع من فمي ومن قلبي مثلَ صرخةِ استغاثةٍ».

وروى تيودور، لاحقًا، أنّ ذويه نقّلوه بين العديد من المدارس التي يرتادها أبناء أثرياء اليهود، وأوضح أنّه «في الرابعة عشرة علّموني اللّغة العبريّة، ولكن لم يكن للّه ذكرٌ أو حضورٌ»، واللّه هو من كانت نفسه تنشده، متعطّشةً إليه. ولاحظ طلاّب تيودور وزملاؤه في المدرسة اليهوديّة التي كان يديرها أنّ تفسيرَه للنبوءات غدا ينأى عن التفسير اليهوديّ المألوف، بل يناقضُه، أحيانًا، فأُقصِيَ عن تلك المدارس.

وعلى إثر ذلك، لمحه أخوه ألفونس، في منزل الأستاذ بوتان، يرسم على نفسه إشارة الصليب، قبل تناول الطعام، وهي إشارةٌ يمقتُها اليهود مقتًا شديدًا، فاستنكر، واستشاط

غيظًا، ووشى به إلى والده. وقد استمرّ عداؤه لأخيه الأكبر، بسبب ذلك، عشر سنواتٍ.

تلقّى تيودور راتسبون سرّ العماد، بتاريخ ١٨٢٧/٤/١٤. وبعد نحو سنةٍ، أي في شهر تشرين الأوّل من عام ١٨٢٨، ارتدى الثوب الكهنوتيّ. وقد فاق هذا التحوّل طاقةَ أخيه الأصغر، ألفونس، على الاحتمال. وزاد من ضيقه ومن ضيق الأُسرة كلّها أنّ تيودور كان يمارس واجبات كهنوته في مدينة ستراسبورغ عينها، التي يقيم فيها ذووه. وقد علّق ألفونس، لاحقًا، على ذلك الضيق، فكتب: «ثوبُه كان يثير نفوري، وحضورُه يصيبني بالضيق. كلامُه الوقور والجادّ كان يستفزّ حنقي...

«رغم صغر سنّي كان موقف شقيقي يستفزّني، فأبغضتُ ثوبَه، وسلوكَه، وطباعَه... ارتدادُه الذي كنت أَعدّه جنونًا، رسّخ إيماني بتعصّب الكاثوليكيّين الذي مقتّه».

وضاعف تصلّب ألفونس أنّ خالاً له قد اعتنق الإسلام في تركيّا، ثمّ انتحر، فنفر من كلِّ ارتدادٍ، وعلّق على ذلك

بقوله: «ما أبشع التخلّي عن الدين الذي أوجدنا فيه الله!»

واتّفق أنّ ابن أخيه الأكبر أدولف، أشرف على الموت، وهو في العاشرة من عمره، والتمس أخوه الأب تيودور، إذنًا بتعميده، فاستشاط ألفونس غيظًا من هذا الموقف، وبعث لأخيه الكاهن رسالةً تضجّ استنكارًا وشتيمةً، وقد اعترف، هو نفسه، لاحقًا:

«لقد ضمّنتُ رسالتي وابلاً من الشتائم والتهديدات، وما زلتُ، حتّى اليوم، أعجبُ من إعراض أخي عن الردّ عليها بأيّ كلمةٍ. كان أخي تيودور ما برح يقيمُ علاقاتٍ مع سائر أفراد الأُسرة، أمّا أنا فكنتُ آبى حتّى رؤيته، وكنتُ أُضمرُ كرهًا شديدًا للكهنة، وللكنائس والأديرة، وخاصّةً لليسوعيّين الذين كان مجرّد اسمهم يثير سخطي».

ولم يتنفّس ألفونس الصعداء إلاّ يوم انتقل أخوه الكاهن إلى باريس، حيث عُيِّن نائب رئيس أخويّة «سيّدة الانتصارات». وحينئذٍ صرّح: «خفّفني رحيله من عبءٍ باهظٍ».

ولطالما صرّح أنّه كان، من أَفراد أُسرته، أَشدَّهم مناوأةً وعداوةً لأخيه تيودور، بسبب ارتداده عن اليهوديّة، وأعلن، يومًا: «لم أبغضْ أحدًا من أَعضاء أُسرتي سوى واحدٍ، هو أخي تيودور، ومع أنّه كان يحبُّنا...».

ومع ذلك، صرّح أيضًا: «كنتُ يهوديًّا بالاسم. فلم أكن أومن حتّى باللّه».

ألفونس يسوق حياة لهوٍ ومتعةٍ وإلحادٍ

عام ١٨٢٩، وكان ألفونس في الخامسة عشرة، انتسب إلى مدرسةٍ بروتستانتيّةٍ في ستراسبورغ، يرتادها أَبناء الأُسر البروتستانتيّة الثريّة، مدرسةٍ كانت تُعنى بالمظاهر البرّاقة أكثر من عنايتها بالعلم والثقافة، وطاب لألفونس العيش فيها عيشًا هانئًا خاليًا من الجهد والهمّ. وقد اعترف، هو نفسه: «لقد أحرزتُ، في تلك المدرسة، تقدّمًا في فساد القلب أَكثر ممّا أحرزتُ من تقدّمٍ في تثقيف العقل». ومع ذلك حصل، عام ١٨٣١، على شهادة بكالوريا، لم يستحقّها، حسب اعترافه.

عام ١٨٣٠ تُوفّي والده أوغست مصابًا بالسلّ. وقد ورث أَلفونس الكثير من خصال أبيه، كما ورث وهن رئتيه، بحيث كان ذووه يخشون له المصير عينه. وأَصبح ألفونس، في السادسة عشرة، يتيم الأب والأُمّ. غير أنّ عمّه لويس الذي

كان يؤثره على جميع إخوته، والذي، مع سعة ثرائه، حُرم نعمةَ الأبناء، تبنّاه، وأصبح له «أبًا ثانيًا».

تلقّى ألفونس دروسًا في الأمور المصرفيّة، ثمّ قصد باريس لدراسة الحقوق، وعاد عام ١٨٣٤، إلى ستراسبورغ، حيث نال دبلومًا في الحقوق. واستقبله عمّه، في مصرفه، بحفاوةٍ وحرارةٍ، وعبّر عن رغبته في اتّخاذه شريكًا ووريثًا، فمنحه حقّ التوقيع على المعاملات المصرفيّة، وأغدق عليه الهبات والهدايا، من أحصنةٍ، وأسفارٍ إلى حيث شاء، محقّقًا كلّ رغباته ونزواته.

غير أنّ أجواء المكاتب كانت تصيب ألفونس بالسأم، وكان يؤثر قضاء أوقاتٍ طويلةٍ في باريس، والتظاهر في صالوناتها، وإنفاق المال بلا حسابٍ، ولكن بمنأًى عن الفسق والمجون. وكان يقرن حياة السعة واللهو بالرغبة في الإحسان، والتعاطف مع المعوزين. هذا الميل دفعه إلى ترؤّس جمعيّةٍ تهتمّ بتوفير العمل للشبّان اليهود المعوزين، بعيدًا عن أيّ اهتمامٍ دينيٍّ أو سياسيٍّ. وقد توفّق إلى توفير الأموال لهذا المشروع.

خطبة وسفر

عقد أَلفونس، وهو في السابعة والعشرين من عمره، خطبتَه على «فلور» ابنة أخيه، التي كانت في ربيعها السادس عشر. وجديرٌ بالتنويه أنّ اليهود لا يرون حرجًا في زواج العمّ من ابنة أخيه، أو الخال من ابنة أُخته، حرصًا على حفظ ثروة الأُسرة ضمن الأسرة. وبما أنّ بنات الأُسر الغنيّة كنّ يقدّمن لأزواجهنّ بائنةً (دوطة) قيّمةً، فكان اليهود يرون أنّ الأقربين هم بها أَولى.

كانت «فلور» قد اعتُبرت نصيب ألفونس منذ مولدها. وهو كان يستشفّ فيها مبعث كلّ سعادته، وقد وصفها، في إحدى رسائله، بأنّها «الطيبة، والفضيلة، ومجمّع كلّ ما هو جميلٌ: المحبّة، والتسليم، والحكم السديد، والعقل الراجح، ونبل المشاعر»...

كان وَلِهًا بها، وكان قد فضّلها على فتاةٍ أُخرى نمساويّةٍ يهوديّةٍ، أوفر منها ثروةً وجمالاً.

وحُدِّد تاريخ زواجهما في منتصف شهر آب ١٨٤٢. وريثما يحين ذلك الموعد نُصح ألفونس بالقيام برحلةٍ طويلةٍ تدعم صحّتَه الهشّة، وتُغني خبرتَه، وتتيح مزيدًا من النضج لخطيبته التي ما برحت حديثة السنّ.

مقاصدُ عديدةٌ كانت متاحةً لرحلته، ودعواتٌ كثيرةٌ أَتته من أخواته وأصدقائه، ولكنّه اختار، أخيرًا، نابولي، ثمّ مالطا، وجولةً في الشرق قد تفضي به إلى القدس.

وقد حرص، قبل انطلاقه، على اتّخاذ كلّ الإجراءات العمليّة التي تضمن حسنَ سير جمعيّة تشغيل الشبّان اليهود التي كانت تحظى باهتمامه. وحول إدارة هذا المشروع، لاحظ، لاحقًا:

«أخذنا كلّ شيءٍ بالحسبان، ولم نذهل سوى عن أمرٍ واحدٍ: شريعة اللّه، التي لم يؤتَ على ذكرها. ولست أذكر أنّ حتّى اسم اللّه ورد مرّةً واحدةً، أو اسم موسى، أو التوراة».

وقد فسّر ذلك بقوله: «ارتأيتُ إهمالَ كلّ صيغةٍ دينيّةٍ، والنأي عن اعتماد أيِّ مرجعٍ كتابيٍّ أو شخصيٍّ، على أن يمارسَ كلّ فردٍ عقيدتَه، بالأسلوب الذي يرتئيه».

أمّا عن خطّيبته فكتب، بتاريخ ١٨٤٢/٤/١٢:

«كانت تنمو روعةً تحت أنظاري، وكنتُ أرى فيها كلَّ مستقبلي، وكلَّ أملٍ في السعادة المكتوبة لي... الذين شاهدوها يعلمون أنّه سيكون من المتعذّر تخيّلُ فتاةٍ تفوقها رقّةً، وعذوبةً، وبهاءً. ولكأنّها وُجدَت فقط لتكملَ وجودي. وعندما اقترنَتْ رغبات الأُسرة جمعاء بميولنا المتبادلة، أحدنا نحو الآخر، وقُرّر، أخيرًا، هذا الزواج الذي طالما كان موضوعَ رغبةٍ، لم يعادل سعادتي شيءٌ».

وقد أيقظت تلك الخطبة، لدى ألفونس، مشاعر دينيّةً كانت غافيةً، فهو رغم العلمانيّة التي كان يُعلنها، قد احتفظ دائمًا بإيمانٍ باللّه، وبوجدانٍ أخلاقيٍّ وقاه من التردّي إلى ما تنزلق إليه المجتمعات البطرة، من ملذّاتٍ سهلةٍ.

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّه، عقب ارتداد ألفونس عن

اليهوديّة، ورفضِ خطّيبته اقتفاء أثره، وفسخِ العلاقة بينهما، تزوّجت «فلور» رجلاً مرموقًا ساعدها على تأسيس صالونٍ باريسيٍّ أضحى ملتقى فنّانين، وأدباء، وسياسيّين. وكانت انتخابات أعضاء الأكاديميّة الفرنسيّة، غالبًا، تناقَش وتُعدّ فيه.

الرحلة التي حسمت مصيره

بتاريخ ١٨٤١/١١/١٧، استهلّ ألفونس رحلتَه، على أن يعودَ في الصيف المقبل كي يعقدَ قرانَه على «فلور». وسرعان ما انقلبت تلك الرحلة التي ابتغى منها النقاهةَ والمتعةَ إلى رحلة مصيرٍ، وانحفر تاريخ السابع عشر من تشرين الثاني، ذكرى خالدةً، في أعماقِ كيانِه.

في العربة الفارهة التي انطلقت به، كان ألفونس يبكي، فقد شقّ عليه فراق خطيبةٍ يعشقُها، وعمٍّ يحبُّه ويرتاحُ إلى وجوده، وأفراد أسرته الأعزّاء؛ كما شقّ عليه الابتعاد عن مشاريعه الخيريّة. وفوق كلّ ذلك كان للكآبة التي غزت نفسَه سببٌ دفينٌ. فالمتع الاجتماعيّة كانت تخلّفُ، في حلقه، طعمَ الرماد. ولطالما أَخذَت عليه خطيبتُه «وجه الجنازة» الذي كان يُبديه في المناسبات الاجتماعيّة.

كان يقصد أجملَ مواقع العالم، وينعمُ بأوفر وسائل المتعة، ولكنّ قلبَه كان خاويًا، فالتمس من اللّه أن يوفّقَه برفيقٍ يُؤنس وحشتَه. ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ تناوب الفرح والدموع عادةٌ أَلِفها ألفونس سحابةَ عمرِه.

استوقفَه شقيقُه هنري في مرسيليا، وأَحاطه بضيافةٍ كريمةٍ. وفي ١٢/٥ استقلّ باخرةً ميمّمةً صوب نابولي. وكانت تلك هي المرّة الأولى التي يستقلُّ فيها باخرةً. بعد ثلاثة أيّامٍ أرستْ الباخرةُ في مرفأ «شيڤيتّا ڤيكيّا»، بضواحي روما، حيث سمع دويَّ مدافع، في جوٍّ ساكنٍ. وأُخبِر أنّ تلك المدافع كانت تحتفل بعيد الحبل بالسيّدة العذراء بلا دنسٍ. ولكن لم تكن السيّدة العذراء والاحتفالات الكاثوليكيّة تعني له شيئًا. ومن ثمّ رفض النزول إلى اليابسة.

وفي اليوم عينه واصلت الباخرة إبحارَها إلى نابولي، حيث استولت عليه الرغبة في رؤية كلّ شيءٍ. غير أنّ مذكّراتِه عن تلك المحطّة حفلت بالشتيمة للكهنة الذين رأى

أنّ وجودهم يفسد جمالَ المكان. وقد أتلف، لاحقًا، هذا الجزء من مذكّراته.

في نابولي تلقّى دعواتٍ ملحّةً من أصدقاء، ومن شخصيّاتٍ مرموقةٍ راغبةٍ في استضافته، بضعةَ أيّامٍ، في المدينة الخالدة، روما. ولكنّه أعرض عن تلك الدعوات، فقد كان مستعجلاً في الذهاب إلى مالطا لقضاء الشتاء فيها. ولهذا الغرض حجز مكانًا على باخرةٍ متوجِّهةٍ إلى پاليرما على أن يبحر منها إلى مالطا. ولكنّ تلك الباخرة تلكّأتْ في الإقلاع، بسبب أعيادِ نهاية السنة، وبدء السنة الجديدة.

يوم رأس سنة ١٨٤٢ بهظت نفسه الوحدةُ: فما مَن يتبادل معه التهاني، وما مِن عزيزٍ يضمُّه. فخرج كي يروّحَ عن نفسه، ويطردَ الكآبة. واندمج في الحشد المتحرّك، وإذا به أمام كنيسةٍ دخلها، وكان يُحتفلُ فيها بالذبيحة الإلهيّة. اتّكأ على عمودٍ وانفتح قلبه لجوٍّ مجهولٍ، وراح يصلّي، غيرَ عابئٍ بما كان يَجري من حوله. صلّى من أجل جميع مَن أحبّهم، الأموات منهم والأحياء، فتبدّدت غيومُ كآبتِه، ولكأنّ صوتًا

كان يهمس في أذنه: «صلاتُك استُجيبت». وكانت تلك إشارةً أُولى إلى نعمةٍ ستقوده إلى حيث لم يكن راغبًا في المضيّ.

محطّة روما المصيريّة

صباح الرابع من كانون الثاني ١٨٤٢ قصد مكتبَ السفر للاستعلام عن موعد إبحار الباخرة إلى پاليرما. ولكنّه، لا شعوريًّا، توجّه إلى مكتب العربات القاصدة روما، وحجز لنفسه مقعدًا. وبعث إلى الصديق الذي كان سيرافقه إلى مالطا، برسالةٍ يخبرُه بأنّه ذاهبٌ، في زيارةٍ قصيرةٍ، إلى روما، وسيعود في العشرين من الشهر من أجل الإبحار إلى پاليرما فمالطا.

لم يكن يتخيّل، حينذاك، أنّ يوم ١٨٤٢/١/٢٠، سيكون له يومَ ولادةٍ جديدةٍ. ولم يستطع أن يفسّر ما الذي حمله على زيارة روما آنذاك، فهو كان قد خطّط لهذه الزيارة في طريق عودته من رحلته إلى المشرق. وقد كتب إلى خطيبته، في ١٨٤٢/١/٢١:

«ستظنّين أنّي أُصبتُ بالجنون: فثلاثَ مرّاتٍ أعلنتُ لك عن عزمي الانطلاق إلى صقلّية ومالطا، ومن غير أن أتبيّنَ ما كان يحدث في داخلي عندما أَزفَ موعد الانطلاق، روما هي التي اجتذبتني، روما هي التي أغوتني، وروما هي التي احتفظت بي».

المسافة بين نابولي وروما تبلغ ٢١٧ كيلومترًا. وكانت تستلزم يومَي سفرٍ على طرقاتٍ وعرةٍ، ومقاعد تفتقر إلى أسباب الراحة. ولكن قُيِّض لألفونس رفيقٌ إنكليزيٌّ يُدعى «مارشال»، وفّر له حديثُه الممتع كثيرًا من السلوى.

وصل إلى روما في السادس من كانون الثاني، وكان يُحتفلُ بعيد الغطاس، وهو، في روما، عيدٌ شعبيٌّ. فاستأجر دليلاً، وبدأ استكشافَه للمدينة الخالدة. بعد ظهر ذلك اليوم زار كنيسةً حيث اعتراه تأثّرٌ استحوذ على كلّ كيانه، وتجلّى على محيَّاه، بحيث استوضحه أحد الموجودين في الكنيسة هل ألمّ به خطبٌ ما.

ولكنّه، في أثناء مروره بـ «حارة اليهود»، تبيّن عُمقَ بؤس بني دينه، ومذلّتهم، فاستنكر، بعنفٍ، «قسوة» الكاثوليكيّين، و«حكم البابا» اللاإنسانيّ، وتنكّرهم، جميعًا، لتعاليم المحبّة المسيحيّة، فامتلأ حيالَهم بغضًا، متسائلاً هل يستأهل قتل رجلٍ واحدٍ، لثمانية عشر قرنًا خلت، كلّ هذه البربريّة!

غير أنّ ألفونس التقى، في الشارع، صدفةً، أحد رفاق الدراسة في ستراسبورغ، وقد خفّف هذا اللقاء من قسوة وحدته وغربته، وأتاح له التمتّعَ بمتابعة اكتشاف روائع روما.

وقُبَيْل موعد مغادرته روما ارتأى ألفونس من الواجب توديع جميع مَن استضافوه، وتذكّر وعدًا كان قد قطعه بزيارة شقيقِ رفيقِ دراستِه، واسمه «تيودور دي بوسّيير»، المرتدّ عن البروتستانتيّة إلى الكاثوليكيّة، وهو صديقٌ لأخيه تيودور. وعزم على الاكتفاء بزيارةٍ خاطفةٍ، ولكنّ عاملاً لم يدركه أمسكه، فامتدّ النقاش بينهما، عنيفًا، وصبّ ألفونس، أثناءه، كلّ ما كان قلبُه يفيض به من مقتٍ للكاثوليكيّين، ومن استنكارٍ لإذلالهم بني دينه، ولكنّه باح بالتأثّر البليغ

الذي استحوذ عليه في الكنيسة التي زارها يوم وصوله الأوّل إلى روما.

في نهاية النقاش، قال له «تيودور دي بوسّيير»: «بما أنّك لا تتأثّر بالخرافات، فهل تقبل الخضوع لاختبارٍ بريءٍ، وتجرّب تعليق إيقونةٍ عجائبيّةٍ للسيّدة العذراء في عنقك؟». وكانت هذه الإيقونة قد أحدثت جمًّا من الأشفية والارتدادات، فور إصدارها عام ١٨٣٢.

«دي بوسّيير» نفسه، استغرب، لاحقًا، لجوءه إلى هذا التحدّي. أمّا ألفونس فكتب:

«أعترف أنّ اقتراحَه أدهشني بسذاجته الصبيانيّة البالغة، ولم أكن أتوقّع انحداري إلى درك القبول به. ردّ فعلي الأوّل كان الضحك والاستهزاء. ولكن خطر لي أنّ ذلك المشهد سيمثّل فصلاً من انطباعات رحلتي».

وتمّ كلّ شيءٍ في جوٍّ من المرح والفكاهة. وسارعت ابنتا «تيودور دي بوسّيير» الصغيرتان إلى نظم إيقونةٍ عجائبيّةٍ، في شريطٍ حريريٍّ، وتطويق عنق ضيفهم بها، في حين كان

ألفونس مغرقًا في الضحك، وهو يتخيّل كم ستلهو خطيبتُه عندما سترى هذا الشيء.

دهش تيودور من نجاحٍ لم يتوقّعه، فتشجّع وأضاف:

– «والآن ينبغي إكمالُ الاختبار، بأن تتلو، كلّ صباحٍ ومساءٍ، صلاة «اذكري»، وهي صلاةٌ قصيرةٌ وضعها القدّيس بيرنار». ولكنّ ألفونس اعترض:

– «ما هذه الـ «اذكري»؟ دعنا من الحماقات!».

فقد ذكّره اسم القدّيس بيرنار بأخيه الكاهن الذي كان قد وضع كتابًا يروي سيرةَ هذا القدّيس. ولكن رغم معارضة ألفونس ألحّ مضيفه على إعطائه نصّ صلاة «اذكري»، مؤكّدًا له أنّ رفضَه سيكون بمثابة تأكيدٍ لتعنّت اليهود، وانغلاق ذهنهم. أخيرًا استسلم ألفونس قائلاً:

– أعد بتلاوة هذه الصلاة. وإن هي لم تُؤتِ خيرًا، فلن تؤذي.

وإليكم هذه الصلاة:

«اذكري، أيّتها العذراء مريم، كلّيّة الرأفة، أنّه لم يُسمَعْ، قطّ، أَنّ أحدًا ممَّن لجأوا إلى حمايتِك، والتمسوا غوثَك، وشفاعتك، قد خُذِل. وإذ تحدوني هذه الثقة، آتي إليك، يا عذراء العذارى، يا أُمّي، وأرتمي بين ذراعيك، وأنا أئِنُّ رازحًا تحتَ عبءِ خطاياي، وأطَّرحُ عندَ قدميك.

«فيا أُمّ الكلمة لا تردّي صلواتي، بل تنازلي وتقبّليها بعطفٍ، واستجيبي لها... آمين».

جاءه، إذن، تيودور بنصّ الصلاة، ولكنّه مضى قُدُمًا في اختباره، قائلاً: «هذه هي النسخة الأخيرة لديّ، فأرجوك أن تنسخها». وإنّما هو ابتغى، بقوله هذا، أن يجعله يتمعّن محتوى تلك الصلاة، عوضًا عن رميها في القمامة. ومضى ألفونس، أيضًا، قُدُمًا في المجاملة والمصانعة، واعدًا بنسخ نصّ الصلاة، وبإعطاء تيودور هذه النسخة.

بعد أن غادر ألفونس، تساءل «تيودور دي بوسّيير» كيف تجرّأ على ممارسة مثل ذلك الضغط على شخصٍ لم تكن

تجمعه به أيّة صلةِ صداقةٍ، وكان يحدّثه للمرّة الأولى. ولكنّه، في قرارة نفسه، كان متيقّنًا من أنّ القوّة السماويّة التي دفعته إلى فعل ما فعل لن تتلكّأ في إنارة نفس ألفونس، رغم كلّ ما صبّه من شتائم على العقيدة الكاثوليكيّة، وطلب من ابنتيه الصغيرتين أن تقدّما صلاتهما المسائيّة، لأجل هذه النيّة.

والتمس، أيضًا من جماعة صلاةٍ في روما، تضمّ شخصيّاتٍ ارتدّت عن البروتستانتيّة، أو عن حياةٍ فاترةٍ، وكانت تمارس تكريم الإيقونة العجائبيّة، والتعبّد للقربان المقدّس، الصلاة من أجل صديقِهِ الجديد الذي لم يُفصحْ عن هويّته.

ودّع ألفونس مَن كان عليه وداعُهم، وعشيّةَ مغادرته روما، ذكر وعده بنسخ صلاة «اذكريني»، فنهض باكرًا، ونسخها، وبلا شعورٍ، راح يعيد قراءتها، كرّةً إثرَ كرّةٍ، متسائلاً ما المدهش في هذه الصلاة الذي جعله يحفظها غيبًا، مع أنّه لم يكن يخالجه، وهو يتلوها، أيّ شعورٍ دينيٍّ.

وأزفت ساعة مغادرته لروما، وبما أنّ مكتبَ العربات قائمٌ

في أسفل البناء الذي يسكن فيه «تيودور دي بوسّيير»، صعد وسلّمه نسخةَ صلاة «اذكريني» الموعودة، وهو يقول له: «أرجو أن تكون قد نسيت ترّهات أمس». ولكن عندما سأله تيودور عن الإيقونة العجائبيّة، أظهر شيئًا من الضيق، ووصف مضيفَه بالساحر، وأضاف: «أنت لا تعرفني إلاّ منذ أربعٍ وعشرين ساعةً، ومع ذلك تُكرهني على سماع ما لن يجرؤ أخي الكاهن على إسماعي!».

وجهد «تيودور دي بوسّيير« في إقناع ألفونس بإرجاء سفره، مستغربًا مغادرتَه لروما في الوقت الذي يتدفّق فيه السائحون إليها، لمشاهدة الاحتفالات الفخمة بمقام القدّيس بطرس التي يرأسها البابا بنفسه، ولحضور كرنفال روما الشهير، مبيّنًا لضيفه أنّ مثل هذه المناسبة ربّما لن يتسنّى له مرّةً أُخرى. ومع اعتراضات ألفونس، وحججه الداعمة لواجب سفره، مضى قُدُمًا في إلحاحه، إلى أن لمس لديه شيئًا من التراخي والميل إلى تلبية رغبته في إطالة مكوثه.

وفي هذه الأثناء، وردت إلى «تيودور دي بوسّيير» رسالةٌ

من الأب «تيودور راتسبون»، شقيق ألفونس، بشأن كتابٍ كان «دي بوسّيير» ينشره في فرنسا. وكان من شأن تلك الصدفة تأكيد عزم ألفونس على مغادرة روما في الحال، إذ إنّ مجرّد ذكر اسم أخيه تيودور كان بغيضًا لديه. ولكنَّ دي بوسّيير كان حازمًا: «لا يمكنك مغادرة روما قبل أن ترى البابا».

ومعًا قصدا مكتب العربات، وألغيا حجز ألفونس، الذي اعترف، لاحقًا، أنّ قوّةً مجهولةً كانت تدفعه، فكتب:

«هذا الدافع الذي لا يُقاوَم، الذي حملني على فعل ما لم أُرِدْ فعلَه، ألم يكنْ، هو عينه، الذي جعلني، في ستراسبورغ آتي إلى إيطاليا، رغم الدعوات الموجّهة إليّ من ڤالنس وباريس، والذي جاء بي من نابولي إلى روما، رغم عزمي التوجّه إلى صقلّية، وهو عينه، في روما، وساعة مغادرتي لها، أكرهني على القيام بزيارةٍ أنفر منها، مع افتقاري إلى الوقت اللازم للقيام بزياراتٍ كنت راغبًا فيها؟»...

ومعًا زار تيودور دي بوسّيير وألفونس راتسبون الكنائس التابعة لليسوعيّين، ومقرّ اليسوعيّين العامّ، حيث التقيا الأب «روزاڤين» الذي كان تيودور قد نصح بإيكال شأن ألفونس راتسبون له، ودار الحديث بين ألفونس والكاهن عن الدين. وفيما كرّر ألفونس ما كان قد أعلنه، آنفًا، في ستراسبورغ أنّ على كلّ امرئٍ أن يمارس الدين الذي يلهمه إيّاه وجدانه، أكّد الكاهن على ضرورة معرفة يسوع المخلّص الذي بشّر به موسى والأنبياء. وكان ألفونس يستمع إليه بتهذيبٍ وصبرٍ، ولكن بلا قناعةٍ، ولكأنّ محدّثَه من عالمٍ آخر، ومن عصرٍ بائدٍ.

وأكّد ألفونس أنّه يرتاد الكنائس بلا تردّدٍ، ويصلّي فيها، بكلّ نفسه، مذكّرًا بالعزاء الذي غمر نفسَه يوم رأس السنة، وبدّد ما كان يبهظها من غربةٍ ووحدةٍ.

وتقبّل ألفونس سِفْر العهد الجديد الذي قدّمه له الكاهن ناصحًا إيّاه بمطالعة «أعمال الرسل»، ورسائل القدّيس بولس إلى العبرانيّين وإلى الرومانيّين، مشدّدًا على ضرورة إمعانه التفكير بالأمر، قبل مغادرته روما.

وفي هذه الأثناء كان رهطٌ من أصدقاء دي بوسّيير يقيمون تساعيّة صلاةٍ من أجل اهتداء شابٍّ يهوديٍّ، يجهلون هويّتَه واسمَه، ومن هؤلاء كان الوزير السابق الكونت، «دي لا فيرّوني» (de la FERRONEYS)، الذي قدّم حياتَه من أجل اهتداء الشابّ، وقَبِل الربّ تقدمتَه، فلقي حتفَه في اليوم التالي.

كان حزن «تيودور دي بوسّيير» على صديقه الحميم، الكونت، هاصرًا، ومع ذلك ما انفكّ يجهد في استراق ساعةٍ أو ساعتين، كلّ يومٍ، كي يزور، مع ألفونس، عدَدًا من كنائس روما، وكي يحدّثه عن العقيدة الكاثوليكيّة. وكان موقف ألفونس يتّسم بالمزاح واللامبالاة، وأحيانًا بالسخريّة.

وفيما كان «دي بوسّيير» واثقًا من قرب اهتداء ألفونس، كان هذا الأخير راسخَ اليقين بأنّ «أواصر المصلحة، والمودّة، والشرف، التي تربطُه باليهوديّة» أقوى من أن تنفصمَ أو تضعف.

بيد أنّ حادثًا غير متوقّعٍ هزّه، وأثار هواجسه، ففي صباح

١٨٤٢/١/١٩، وجد اليد المصنوعة من الكريستال التي كانت خطيبتُه قد أهدته إيّاها قبل رحلته، رمزًا لعلاقتهما، مكسورةً إلى قسمين، من غير أن تتعرّض لأيّة صدمةٍ.

ومساء ذلك اليوم، صلّى «دي بوسّيير» بحرارةٍ أمام جثمان صديقه المتوفّى، الكونت «دي لا فيرّوني»، من أجل اهتداء ألفونس، وكان قد ضرب مع هذا الأخير موعدًا في الساعة الواحدة من بعد ظهر الغد، لمتابعة زياراتهما إلى معالم روما.

وفيما كان «دي بوسّيير» متخشّعًا أمام جثمان صديقه الكونت، كان ألفونس يلهو في بيت وجيهٍ إيطاليٍّ أقام حفلةً راقصةً في منزله. غير أنّه، وهو غارقٌ في حلبة الرقص، كانت كلمات صلاة «اذكري» لا تبارح ذهنَه، فيردّدها في سرّه، وفي لاوعيه.

وفي تلك الليلة أيقظه، مرتعشًا، حلمٌ رأى فيه «ثابتًا، أمام ناظريه، صليبًا أسود جسيمًا، ذا شكلٍ غريبٍ، خاليًا من المصلوب»، وقد جهد، بلا جدوى، في طرد تلك الصورة التي كانت تطارده أينما التفت.

يوم ١/٢٠، التقى ألفونس، في الموعد المضروب، «تيودور دي بوسّيير»، الذي كان آتيًا إليه في عربته. وتوقّفت العربة أمام الكنيسة التي كانت ستقام فيها مراسم جنازة الكونت «دي لا فيرّوني». واستأذن تيودور ضيفَه بضع دقائق ريثما يتفقّد الإجراءات من أجل الجنازة، عارضًا على ألفونس أن ينتظره في العربة. غير أنّ ألفونس آثر النزول وزيارة الكنيسة.

أنهى «دي بوسّيير» مهمّته، وعاد كي يصحب ضيفَه، فلم يجده حيث كان قد تركه، بل في جانبٍ آخر من الكنيسة. ودهش إذ ألفاه راكعًا مستغرقًا في الصلاة استغراقًا عميقًا. ولولا ثيابه لظنّه شخصًا آخر، إذ لم يتوقّع، لحظةً، بعد كلّ ما لحظه لديه من مقاومةٍ، أن يراه في هذا الموقف. دنا منه وهزّه ثلاث أو أربع هزّاتٍ، قبل أن يتبيّن حضورَه ألفونس الذي روى، لاحقًا، ما حدث أثناء تلك اللحظات الخالدات:

«لم أستطع، حينئذٍ، الإجابةَ على استفساراته الملحّة المتلاحقة. ولكنّني، أخيرًا، أمسكتُ الإيقونة التي ما برحت

مدلاّةً فوق صدري، وقبّلت، بحرارةٍ، صورة العذراء المشعّة نعمةً... أجل، لقد كانت هي ذاتها!

«لم أكن أدري أين أنا، وهل أنا ألفونس أم شخصٌ آخر! كان تحوّلي كلّيًّا بحيث ظننتُ نفسي إنسانًا آخر... كنت أُحاول العثور على ذاتي ولا أعثر عليها. وتفجّر فرحٌ غامرٌ من أعماق نفسي. وتعذّر عليّ الكلام».

ويتابع «تيودور دي بوسّيير» الرواية قائلاً:

«أخيرًا حوّل صوبي وجهًا تغمره الدموع، وضمّ يديه، وقال لي بلهجةٍ يتعذّر التعبير عنها:

– «آه! كم صلّى ذلك الرجل من أجلي!».

كان ألفونس يشير إلى الكونت «دي لا فيرّوني» المتوفّى، الذي كان يجهله، مثلما كان الفقيد يجهل هويّة ألفونس.

«أنا نفسي ذهلتُ دهشةً، واعتراني ما يعتري المرء أمام المعجزة!».

ما الذي جرى، خلال الدقائق الخمس أو الستّ التي

كان، في أثنائها، «تيودور دي بوسّيير» يتفقّد إجراءات جنازة صديقه؟

روى ألفونس، لاحقًا، أنّه بينما كان واقفًا يجيل أنظاره في الكنيسة، مرَّ أمامه كلبٌ أسود، متوثّبًا، ثمّ اختفى، وحينئذٍ اختفت الكنيسة كلّها. وتابع قائلاً:

«اعتراني اضطرابٌ يستعصي على التعبير. رفعت عينيّ، فبدت الكنيسة مظلمةً، ومغطّاةً بحجاب. مصلًّى واحدٌ صغيرٌ كان يستأثر بالنور كلّه...

«لم أعد أرى شيئًا، أو بالحريّ، لم أرَ سوى شيءٍ واحدٍ! كيف لي أن أتحدّث عنه؟ كلاّ، لا يسوغ للكلام البشريّ محاولة التعبير عمّا يندّ عن كلّ تعبيرٍ. فكلّ وصفٍ هو بمثابة تدنيسٍ. كنت هناك ساجدًا، غارقًا في دموعي، وقلبي بعيدٌ عنّي، عندما أيقظني السيّد دي بوسّيير على حياة الواقع».

كلّ شهادات ألفونس اللاحقة جاءت لاهثةً، معبّرةً عن التأثُّر البالغ الذي استحوذ عليه.

فقد شاهد، أوّلاً، نورًا، ووسط هذا النور «واقفةً على

الهيكل» العذراءَ كما هي ماثلةٌ على الإيقونة العجائبيّة: يداها مشرعتان، مشعّةً مجدًا... فارعة القوام، متألّقةً، حيّةً، تتدفّق وقارًا ومجدًا، فائقة الجمال...

كانت الكنيسة كلّها قد توارت وسادتها الظلمة، فيما تركّز نورٌ ساطعٌ أمامه، فوق الهيكل الذي كانت تعلوه لوحةٌ تمثّل الملاك ميخائيل. وسط هذا النور لم يرَ رئيس الملائكة أو أيّ ملاكٍ آخر، بل رأى بهاءَ أمّ الربّ، كما هي مرسومةٌ على الإيقونة العجائبيّة. هذا الإيضاح كان يغنيه عن كلّ وصفٍ، ولكنّه يضيف أنّها كانت حيّةً، مشعّةً نورًا، مستعصيةً على الوصف. وقد أشارت إليه بيدها اليمنى أن يدنو منها ويركع.

ولم يستطع، يومًا، أن يفسّر كيف اجتاز الحاجز الفاصل بين جانب الكنيسة الذي كان واقفًا فيه، والجانب الآخر حيث ظهرت له السيّدة العذراء.

حاول، كرّةً إثر كرّةٍ، رفع أبصاره نحو وجه المباركة بين النساء، ولكنّ الجلال المشعّ منه كان يردّ بصره، فيستقرّ عند يديها المشرعتين. وكان ذلك حسبَه. وقد أوضح: «أثبتُّ

نظري على يديها، حيث قرأت الغفران والرحمة. بحضور العذراء كلّيّة القداسة، ومع أنّها لم تفُهْ بكلمةٍ، أدركت هول الحال الذي كنت عليه، وبشاعة الخطيئة، وروعة الدين الكاثوليكيّ. بإيجازٍ، أدركت كلّ شيءٍ!».

لقد تحوّلت الإيقونة إلى حضورٍ حيٍّ فاعلٍ. وقد علّق على ذلك بقوله: «حسْبُ نظرةٍ من مريم، من أجل قلب نفسٍ وزلزلة وجودٍ بكامله، وهداية رأيٍ ضالٍّ، وتحويل قلبٍ فاسدٍ إلى قلبٍ صالحٍ».

ولطالما نصح:

«اصمتوا، وابقوا تحت نظر مريم!».

هو لم يرَ هذا النظر، ولكنّ نظر العذراء نفذ إلى أعماقه، فامتلأ به قلبُه على امتداد الباقي من حياته. ولكنّه عجز عن التعبير عنه، ولم يجد قولاً يتحدّث به عن الحبّ والنور. واقتصر، لاحقًا، على القول: «أُسأل، أحيانًا، عن يوم العشرين من كانون الثاني: إنّه نورٌ في النور!».

لم يتلقَّ ألفونس معرفةً جديدةً، بل تلقّى نورًا أضاء له كلَّ

شيءٍ على وجهٍ قشيبٍ، وجعله يستشفّ ما كان لا يزال يجهله ويرغب فيه.

ويروي «تيودور دي بوسّيير» ما حدث حينذاك:

«أنهضتُ ألفونس راتسبون، واقتدتُه، بل أكاد أقول حملته (خارجًا) واستوضحتُه عن مقصده، فأجاب:

– «اقتدني إلى حيثُ تريد. فبعد أن رأيتُ ما رأيت، سأمتثلُ لرغبتك».

«وألححتُ كي يفسّر لي ما حدث له، ولكنّه لم يستطع، فقد كان تأثّره طاغيًا. واستلّ من صدره الإيقونة العجائبيّة، وغمرها بقُبَله ودموعه.

«عدت به إلى فندقِه، ولكنّني لم أستطعْ أن أنتزع منه سوى هتافاتٍ مبلّلةٍ بالعبرات:

– آه! ما أسعدني! كم اللّه طيّبٌ! أيّ فيضٍ من النعم والسعادة! وكم الذين يجهلون جديرون بالرثاء!

«وكلّما خطر الكافرون بباله كان يُغرق في النحيب... ثمّ

استوضحني هل هو أُصيبَ بالجنون. ولكنّه سارع إلى التأكيد:

– كلاّ، أنا بكامل وعيي! يا إلهي! أنا لست مجنونًا. الجميع يعلمون أنّني لست مجنونًا!

«لقد شرع يدرك أنّ حكمة الله هي جنونٌ في نظر العالم».

ويتابع «تيودور دي بوسّيير» روايته قائلاً:

«عندما هدأت سورةُ هذيان تأثّره، حدّق إليّ بوجهٍ مشعٍّ، متجلٍّ، وضمّني بين ذراعيه، وقبّلني».

وقد علّق ألفونس راتسبون نفسه على تلك الصاعقة التي انقضّت عليه، وقلبت كيانه، فكتب:

« لو كان أحدٌ قد قال لي، صبيحة ذلك اليوم: «لقد نهضت من نومك، يهوديًّا، وسترقد مسيحيًّا...»، لكنتُ نظرتُ إليه نظرتي إلى أكثر البشر جنونًا».

وأضاف: «لو جاءني، ظهر ذلك اليوم، من قال لي: «يا ألفونس، بعد ربع ساعةٍ، ستعبد يسوع المسيح، إلهك

ومخلّصك. وستجد نفسك راكعًا في كنيسةٍ وضيعةٍ، وستقرع صدرك أمام كاهنٍ، في ديرٍ لليسوعيّين، حيث ستقضي الكرنڤال، تأهُّبًا للعماد، مستعدًّا للتضحية بذاتك من أجل العقيدة الكاثوليكيّة؛ ستزهد بالعالم، وببهارجه، وملذّاته، وبثروتك، وأحلامك، ومستقبلك، وإن اقتضى الأمر ستتخلّى، أيضًا، عن خطيبتك، وعن محبّة أُسرتك، وتقدير أصدقائك، وعن علاقتك الحميمة باليهود... ولن تصبو، من بعدُ، إلاّ إلى اتّباع يسوع المسيح، إلى حمل صليبه، حتّى الموت! ... أقول لو أنّ نبيًّا تنبّأ لي، بمثل ذلك، لما عددتُ سوى إنسانٍ واحدٍ يفوقه جنونًا، الإنسان القادر على تصديق هذه الحماقة! ومع ذلك هذه الحماقة هي التي تمثّل، اليوم، حكمتي وسعادتي!».

أمّا الفيلسوف الفرنسيّ «جان غيتّون» ، فقد علّق على ذلك الحدث بقوله: «في الساعة الواحدة من بعد ظهر يوم الخميس، الواقع في ٢٠ كانون الثاني ١٨٤٢ لم يكن ألفونس راتسبون اليهوديّ الغيور على دينه، المثقّف، الفاتن، صديق العالم، والمحسن إلى الفقراء، يضمر للدين

الكاثوليكيّ، الذي يعرفه من الخارج، سوى المقت والازدراء. وفي الساعة الواحدة وعشر دقائق، كان يلجّ في التماس العماد، إثر حدَثٍ نفسيٍّ معجزٍ. كان قد اعتنق العقيدة الكاثوليكيّة كاملةً، ولم يستهجنها، وتخلّى عن كلّ شيءٍ، متوقّعًا ازدراء ذويه، ومتقبّلاً إيّاه.

«وسيمضي إلى نهاية شوط مقتضيات وضعه الجديد، من فقرٍ، وعفّةٍ، وتجرّدٍ، وتفانٍ، حتّى وفاته في السادس من أيّار، ١٨٨٤».

أبدى ألفونس رغبةً في السهر والتخشّع أمام جثمان الكونت دي لا فيرّوني، الذي كان لصلاته تأثيرٌ على ارتداده، وكان ذلك الجثمان مسجًّى في الكنيسة. ولكنّ الكاهن نصحه بألاّ يطيلَ السهر هناك، فالكنيسة باردةٌ، وقد يؤذي البردُ رئتَيه، ولا سيّما أنّه كان قد بصق دمًا قبل ثلاثة أيّام. وأخيرًا تمّ الاتّفاق على أن يكتفي بالسهر حتّى الساعة العاشرة ليلاً.

عاد ألفونس، إذن، إلى الكنيسة التي رأى فيها أمَّ الله،

وقد اكتشف لها وجهًا آخر مختلفًا عن ذاك الذي رآها عليه، عندما ولجَها للمرّة الأولى. وركع حيث رأى العذراء، واستغرق في الصلاة.

وعند الساعة العاشرة جاء، مع «تيودور دي بوسّيير»، شقيقه «غوستاف» الذي كان رفيق دراسة ألفونس، وسمع روايته، واقتنع بأنّ ظهورًا حدث وأحدث معجزةً، ورغب، هو أيضًا، في اعتناق العقيدة الكاثوليكيّة.

في الغداة، ٢١ كانون الثاني، استيقظت السعادة مع ألفونس، الذي وجد نفسه في حالةٍ مختلفةٍ، وصفها بقوله:

«وجدتُ نفسي عاريًا، مجرّدًا من كلّ ماضيَّ. لم يعُدْ العالم يعني لي شيئًا، فقد احتلّ حبّ اللّه المكانَ كلّه».

ولكنّه لم يذهلْ عن حبِّه البشريّ، حبِّه لخطيبته، وكان يتساءل كيف سترى هي تحوّلَه. هو نفسه، إذ كان يذكر موقفه بالأمس، واستهزاءَه بالكاثوليكيّة، كان يصعب عليه فهم تحوُّله الذي كان يعيه بوضوح. كان حبّ اللّه الذي استحوذَ عليه يسمو بحبِّه لخطيبته، ولا يقضي عليه.

ولكن كيف له أن يفسِّر لخطيبته ما بات يؤمن به اليوم، وكان، أمسِ، في نظره، وهمًا، وتخرّصاتٍ؟

وجاء في رسالته لها: «اطمئنّي، فالله وحدَه قادرٌ أن يجعلني أتخلّى عن حبّي لك. وحتّى إن وضعَتني إرادتُه في هذا الامتحان الشاقّ، فسأبارك اسمَه، ولن أكفَّ أُصلّي من أجلك».

وأشار، في رسالته، إلى صحّته الهشّة التي كانت، ظاهريًّا، سبب رحلته وأوضح:

«أنت تعلمين أنّ صحّتي لم تكن هي المعتلّة، بل أنا كنتُ في وضعٍ مُعتمٍ يشوبُه حزنٌ عنيدٌ، حتّى وسط الاحتفالات والملذّات، حزنٌ كان ينخر وجودي كلّه، ويصبغ بالسواد علاقتنا نفسها. في كلّ شيءٍ، وفي كلّ وقتٍ، كنت أشعر، كما ستشعرين أنت نفسك، ذات يوم، ما لم يكن عقلك قد أظهر لك ذلك الآن، بفراغٍ يُرعبني هولُه. ولكنّ هذا الفراغ الرهيب قد حلّ محلّه الامتلاء، الآن، يا صديقتي، فأنا أسعد بني البشر، وصحّتي التي كانت هشّةً، قد تأثّرت

خيرًا، وتحسّنت، فقاسميني فرحتي. في روما حظيت بالشفاء. فأنا لم أستسِغ، يومًا، حفلات الرقص، والتجمّعات الحمقاء التي تُدعى سعادات العالم. ولطالما قلتِ لي، أنت نفسُك، إنّني أبديتُ فيها، دائمًا، «وجه جنازة». وتعلمين، يا صديقتي، أنّني أظهرت، دائمًا، اندفاعًا حارًّا، حيال الأمور العظيمة والجميلة... هذا الشعور الذي تسمّينه شعرًا، (لأنّك، يا صديقتي المسكينة، لا تؤمنين) هذا الشعور قد استطعت إرواءه في روما: روما مركز كلّ ما هو جميلٌ وخالدٌ. فلنشكرْ معًا كرمَ السماء اللامحدود.

«أمّا عن ثقافتي، التي لم تكن تحظى بالكثير من اهتمامي في ستراسبورغ، فإنّي أؤكّد لك، يا حبيبتي «فلور»، أنّني، في روما، بلا معلّمٍ، ولا كتبٍ، قد تعلّمتُ، في غضون أيّامٍ، بل في غضون ساعاتٍ معدوداتٍ، أكثر ممّا كان بوسعي تعلُّمه طيلةَ حياتي كلّها، لو لم آتِ إلى هنا. فضمّي صلواتِك إلى صلواتي، كي نقدّمَ الشكرَ للّه.

«ستدهشين من لهجة رسالتي الجادّة والدينيّة، والتي

تتعارض، على نحوٍ مدهشٍ ومعجزٍ، مع الشتائم من كلّ صنفٍ، التي كانت تملأ رسائلي السابقة، والتي لم تكنْ سوى النتيجة المنطقيّة لكفري، وللجوّ الملحد الذي كنتُ أعيشُ في أحضانه.

«أجل، يا فلور، إنّها أعجوبةٌ، بمعنى الكلمة الصحيح، أُعجوبةٌ مدهشةٌ أحدثَت فيّ هذا التحوّلَ المفاجئ، وملأت فراغي. وبفضل هذه الأعجوبة، أنا، اليوم، أسعدُ البشر.

«لقد رأى اللّه أنَّ قلبي ينطوي على الكثير من الصدق، وبعد أن جعلني أدركُ عدمَ الأشياء، أتاح لملاكٍ حارسٍ أن يأخذَ بيدي على نحوٍ واضحٍ، لكي يرشدَني إلى السعادة الحقّة...

«مرّةً أُخرى، أؤكّد لك، يا فلور، أنّني لست مجنونًا، فوا أسفاه، نحن (أقول نحن، لأنّني، حتّى وقتٍ قريبٍ، كنتُ كذلك) نؤثر رؤيةَ الجنون، حيث تتجلّى القدرةُ الإلهيّة، لأنّه لا مكانَ للدين داخلَ أُسرنا، ولأنّ الدينَ المفروض أن نمارسَه لا يقود إلاّ إلى ما هو مضحكٌ ومستحيلٌ.

«أقسم لك، يا صديقتي، أنّ الحال التي انتهيتُ إليها، إنّما هي ثمرةُ معجزةٍ. وأعلم إلى أيّة سخريَّةٍ أعرّض نفسي، من قِبَل مَن يهزأون بكلّ شيءٍ، (وكنت واحدًا منهم حتّى وقتٍ غير بعيدٍ)، الذين يهزأون حتّى باللّه، رغمَ روائعه اليوميّة. لن أشتكي من عدم إيمانهم، ولكنّني أنعي جهلَهم وادّعاءَهم.

«إنّني أتحدّاهم أن يُثبتوا سببًا لارتدادي غير العجيبة، إذ إنّ هذا الارتدادَ، بمعزلٍ عن المعجزة، سيكون العجيبةَ الكبرى. وأنت ستعترفين بهذه المعجزة، التي لن أحدّثَك عنها بعد اليوم، لا لاعتقادي بعدم أهليّتك لمعرفتها. معاذ اللّه! فأنا مطمئنٌّ إلى مشاعرك، ولكن ينبغي أن تكوني متأهبّةً للإيمان بها».

في اليوم التالي حضر ألفونس جنازة الكونت «دي فيرّوني»، التي اشترك بها معظم أفراد الجالية الفرنسيّة في روما، ثمّ وافى، مع «تيودور دي بوسّيير»، إلى منزل الفقيد، وأشاع، في قلوب ذويه، العزاء، بروايته للمعجزة التي تحقّقت بفضل صلوات الكونت.

وسرعان ما انتشر نبأ ارتداد ألفونس راتسبون في روما.

كان ألفونس قد تردّد في إيداعِ الرسالة التي كتبها لخطيبته في البريد، ولكنّه كان أكثر جرأةً في إعلام عمِّه لويس. وممّا جاء في رسالته له:

«ألم أكنْ، بين أفراد الأُسرة كلّها، الأكثر اضطهادًا لتيودور؟ (أخيه الذي سبقه إلى الارتداد للكاثوليكيّة، ولاعتناق الكهنوت)، ألستُ أحد الذين أمعنوا في إعادة تأهيل اليهود؟... أقسم أنّني دخلت إلى الكنيسة، وأنا يهوديٌّ بقدر ما كنت في ستراسبورغ، على امتداد حياتي، بل أكثر ممّا كنت. وبعد مرور خمس دقائق، خرجتُ منها مسيحيًّا كاثوليكيًّا مندفعًا، متأهّبًا للتخلّي عن كلّ شيءٍ في هذا العالم».

ثمّ تبدّلت لهجته، واحتدمت، فكتب:

«ما الذي جرى، إذن؟ أعجوبةٌ؟ هكذا ستقولون، وأنتم تضحكون! ستشرعون تفكّرون، ساعين إلى العثور على دافعٍ لهذا الارتداد، الذي سيكون، في ذاته، معجزةً كبرى، إنْ

لم تكن المعجزة هي التي أحدثته. اضحكوا، اضحكوا، يا قليلي الإيمان. ولكن ستحين، لكلٍّ منكم، ساعةٌ لن تضحكوا فيها، بل ستُعمِلون الفكر، جدّيًّا، في ما أقوله لكم اليوم».

ثمّ، رغم هذه العبارات الجارحة، عاد فكلّف عمّه بمهمّة تبليغ خطّيبته:

«إنّ التي يحقّ لها اتّخاذ قرارٍ بهذا الشأن هي «فلور»، خطيبتي العزيزة، التي أودُّ أن أُثبتَ لها، ولجميع الذين سيسعون إلى أن يروا، في هذا الحدث، عملاً مُهينًا لها، أنّني أحبّها، بهذا الحبّ الصادق الذي أحببتها به، وسأحبّها به دائمًا. فمن أمرين واحدٌ:

– أن تؤمن «فلور» بحقيقة ما سأقوله لها،

– أو أن ترفض الإيمان بهذه الحقيقة.

«فإن هي آمنت، ستحذو حذوي، وستعتنق الكاثوليكيّة، وسيُعقَد زواجنا عند أقدام الهيكل، بحضور يسوع المسيح. وسيكون منزلنا، وسعادتنا، وتربية أبنائنا الأخلاقيّة والدينيّة،

والجوّ الطاهر والورع السائد عندنا، على تباينٍ واضحٍ مع العلاقات السائدة بين سائر أفراد أُسرتنا، بحيث سيضطرّون جميعهم إلى التمثّل بنا. ولا يساورني، في ذلك، أدنى شكٍّ.

«أو سترفض «فلور» تصديق أقوالي، وحينئذٍ لن يشقّ عليها التخلّي عن رجلٍ جعل نفسَه غيرَ جديرٍ بها، بسبب لجوئه إلى أساليب الخداع هذه. وفي هذه الحال سأكذّب ظنونَها علنًا، خاضعًا، في ذلك، لصوت اللّه، فأزهد بهذا العالم، وسأقضي حياتي في أحد أكثر الأديرة المسيحيّة صرامةً».

لقد ابتغى، بذلك، إثبات أنّه لم يرمِ، من ارتداده، إلى الزواج بامرأةٍ أخرى مسيحيّةٍ، وأنّه، لن يحبّ، بشريًّا، غير «فلور»، وإلاّ فإنّ اللّه، خالق «فلور» سيكون حسْبَه.

إنَّ ما كان يتوق إليه هو ارتداد جميع أفراد أُسرته. فإمّا أن تكون «فلور» هي أداة هذا الارتداد، أو أن يعتكف هو في ديرٍ، ويعكف على الصلاة لهذه الغاية.

وعاد فأكّد صدقَ حبِّه لخطيبته، وتعلّقه بأُسرته، مفسّرًا ارتدادَه «بسعادة معرفة الحقيقة»، وأرفق برسالته إلى عمّه

الرسالة التي كان قد أعدّها لخطيبته كي يسلّمها لها، إن هو رأى ذلك مناسبًا، تاركًا لخطيبته كلّ الوقت الذي تراه ضروريًّا لتقرّر ما تشاء. ووقّع رسالته بالاسم الجديد الذي تبنّاه «ماري ألفونس راتسبون».

بعد أيّامٍ قليلةٍ، وردته رسائلُ من أفراد أُسرته في ستراسبورغ، رسائلُ لاهبةٌ، تطلق عليه ألقاب «قاتل خطيبته» و«قاتل عمّه»، وتدعوه إلى العودة سريعًا إلى باريس، من أجل تفادي الفضيحة في ستراسبورغ. رسائل حفلت بالتنديد، وبالاتّهامات الباطلة التي انتزعت من مآقيه دموعًا حرّى. وقد عبّر عن حزنه، في رسالةٍ إلى عمّه بتاريخ ١٥ شباط ١٨٤٢، قال فيها:

«لو لم أكن كاثوليكيًّا، قلبًا وروحًا، لكانت رسائلكم قتلتني أو أفقدتني رشدي. ولكن، بحضور يسوع المسيح، وبفضل النِعَم التي تلقّيتُها، لم تخنّي قواي».

على أيّة حالٍ، لم تكن كلّ ردود فعل أُسرته مناوئةً، وبعضها هدأ بعد ثورةٍ. فشقيقتُه پولين كانت متفهّمةً، وكذلك أخته إليزا.

وفي شهر آذار ١٨٤٢، كتب له عمّه لويس رسالةً اتّسمت بالمودّة والغفران. ولكن، بالإجمال، كان ألفونس يتأرجحُ بين سعادته باكتشاف الحقيقة وعيشها، ومعاناته من المقاومة اليهوديّة، واتّهاماتها الباطلة. وكان جلّ همّه ألاّ تكون دوافعُه موضعَ تشكيكٍ وإنكارٍ أو اتّهامٍ، ورغبته في أن يحذوَ ذووه حذوه.

وبقيت خطيبته «فلور» هي قلب المشكلة. فقد كان يحبّها بصدقٍ، ويرغب في الوفاء للعهد الذي قطعه لها، على أن تقتفي، هي، خطاه على الدرب الذي اختاره، درب الصليب والشهادة. وقد استنهض شقيقاتِه كي يحاولنَ التأثير عليها، وإقناعَها.

وجديرٌ بالتنويه أنّ خطّيبته السابقة «فلور» توفّيت في ١٩١٥/١١/٢٥، وقد تخطّت التسعين عامًا. وكانت، خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة من حياتها، تطلب من أمينة سرّها المسيحيّة، أن تتلو صلوات المساء، أمامها، بصوتٍ عالٍ. وفي ليلة وفاتها، طلبت منها، وهي بكامل وعيها، أن تشاركها تلاوة «أبانا»، ثلاث مرّاتٍ.

عماد ألفونس ١٨٤٢

منذ ارتداده كان يتحرّق توقًا إلى العماد. كان يحظى بالنعمة، وبالاتّحاد باللّه، وكانت حياة اللّه قد سكنته، ولكنّه كان حريصًا على تثبيتها، ودمغها بما يدمجه بيسوع وبجسده السرّيّ، أي الكنيسة، وبالعماد الذي يمحو الخطيئة الأصليّة. وضاق ذرعًا بانتظار تحقيق ذلك. وعندما ذُكّر بالقوانين التي تفرضُ مهلة ثقافةٍ دينيّةٍ كافيةٍ، اعترض قائلاً: «إنّ اليهود الذي استمعوا إلى كرازة الرسل، عُمِّدوا في الحال، وأنتم تبتغون إرجاء عمادي، بعد أن استمعت إلى ملكة الرسل!».

لقد قُيِّض له معلّمٌ روحيٌّ فريدٌ هو الأب اليسوعيّ «فيليب دي ڤيلّفور» (VILLEFORT)، الذي وصفه ألفونس بقوله: «هذا الرجل ليس بشرًا. إنّه قلبٌ، وإنّه تجسيدٌ للمحبّة السماويّة».

التعاليم التي كان يتلقّاها، لم تكن جديدةً له. بل كان يعرفها بالفطرة والحدْس، وكأنّه كان يتذكّر ما يُلقَّن. كان يشعر بالعقائد أكثر ممّا كان يراها ويدركها. وقد أوضح: «كان كلّ شيءٍ يُحدث في داخلي هذه الانطباعات، وهي ألفَ مرّةٍ أسرع من الفكر، وألفَ مرّةٍ أعمق من التفكير، لم تقتصر على خضّ نفسي، بل هي قلبَتها».

واستجاب مرشدوه لرغبته، فحُدِّد موعد عماده في ١٨٤٢/١٢/٣١. وقد استعدّ لهذا الحدث في دير الآباء اليسوعيّين، وبإشراف الأب «دي ڤيلّفور». وكان رئيس الجمعيّة اليسوعيّة يأتي كلَّ مساءٍ للتحاور معه. وعشيّةَ عماده، أي مساء ١٢/٣٠، زاره الكردينال «ميتزوفانتي» (MEZZOFANTI)، وحادثَه طويلاً.

ومع أنَّ مهلةَ إعداده للعماد كانت قد قُصِّرت، إلاّ أنّه لم يكن يطيق على الانتظار صبرًا. وكان لسانُ حاله يردّد أقوالَ المزمور الحادي والأربعين: «كما يشتاقُ الأيّلُ إلى مجاري المياه، كذلك تشتاقُ نفسي إليك، يا اللّه. ظمئَتْ نفسي إلى الإله الحيّ. متى آتي وأحضر أمامَ اللّه؟».

وقد أفاد شاهدٌ أنّه لاحظ، حين سكب الكردينال ماءَ العماد على رأسِه، «تنهّدةَ سعادةٍ تستعصي على الوصف تتصاعد من صدره، وبسمةً تخطر مثل برقٍ فوق شفتيه، عندما رفعَ رأسَه الذي ما برح مبلّلاً بماء المعموديّة».

أمّا إشبينُه، «تيودور دي بوسّيير»، فقد باح له، لاحقًا:

«لحظةَ عمادِك، رأيتُ بعينَي نفسي الروح القدس يحلّ على رأسِك، رأيتُه بوضوحٍ أشدّ ممّا لو كنت أشهدُه بعينَي الجسد».

وشهدَ آخر: «على وجهه الشاحب لم يكنْ يُشاهَد سوى عظمة الله».

وبعد أن منحَه الكردينال سرَّ التثبّت، قال له الواعظ، مشيرًا إلى موقفه قبلَ اهتدائِه: «أنتَ لم تكن تحبّ الحقيقة، ولكنَّ الحقيقةَ كانت تحبّك!»

ولوحظ أنّ ألفونس، ساعةَ المناولة، كان متلاشيًا تحت وقر الشعور الحميم بالحضور الإلهيّ، بحيث احتاج إلى مَن يسنده، كي يستطيع الاقتراب من المائدة المقدّسة. ولم يقوَ

على النهوض، عقبَ تناوله خبز الملائكة، إلاّ بمساعدة الأب «دي ڤيلّفور» وإشبينه. كان وابلٌ من الدموع يغمر وجنتَيه، وكأنّه «يرزحُ تحت وقر كلّ النعم التي أغدقها الربّ عليه».

وقد استنفر عمادُه ومناولتُه حشدًا من المتناولين، غيرَ مألوفٍ في ذلك العهد.

تلبّث ألفونس بعد ذلك، أيّامًا، في روما، ولكن لم يعد للسياحة أيّ جاذبٍ يشدّه، ولا كرنڤال روما بات يثير لديه أيّ اهتمامٍ. والكنائس التي كان يتأمّلها بعيني الناقد، غدت تحدّثه عن اللّه الحاضر في هياكلها. ولم يعد يستهويه سوى مطالعةِ الكتب الكفيلة بترسيخ معرفته للعقائد التي اعتنقها حديثًا، والتي كانت ترتسم إشاراتٍ مضيئةً في نفسه. ورغب في رياضةٍ روحيّةٍ مغلقةٍ تستمرّ ثمانية أيّامٍ.

أثناء زيارته لروما سائحًا، كان يرغب في إشباع فضوله إلى رؤية البابا، ولم تتسنّ له تلك الفرصة. ولكن في ٣ شباط قُيِّضَ له لقاءٌ خاصٌّ مع البابا غريغوريُس السادس عشر.

كان يرتعد رهبةً من مقابلة ممثّل الربّ يسوع، وهو يذرع

ممرّات القاتيكان التي تقود إلى مقام الحبر الأعظم، ولكنّ كلّ مخاوفه تبدّدت، وحلّت محلّها دهشةٌ عذبةٌ، عندما مثل أمام خليفة بطرس، فإذا به على قسطٍ جمٍّ من البساطة، والتواضع، والعطف الأبويّ. «لم يكن ملكًا، بل كان أبًا، وقد عاملني بعطفه الفائق، معاملةَ ابنٍ حبيبٍ».

غداةَ مقابلتِه البابا، أي في ١٨٤٢/١/٤، باشر رياضة الأيّام الثمانية، بمشاركة «تيودور دي بوسّيير» وبإشراف الأب «دي ڤيلّفور». وكانت تطارده فكرةُ الدأب من أجل تعويض كلّ الوقت الذي هُدرَ بعيدًا عن اللّه.

أمّا محاور تأمّلاته الثلاثة، فكانت:

– الصليب: وقد شهد مرشدُه الروحيّ أنّه يوم تأمّل في آلام المسيح انتابته الحمّى. الصليب الأسود الذي رآه ليلة ٢٠/١٩ كانون الثاني، بات يراه مرسومًا على الإيقونة المقدّسة، في وضَح النّهار، مشعًّا رجاءً.

– أسرار المجد، وهي امتدادٌ للصليب. ومنها استوحى مشروع تأسيس جمعيّة سيّدة صهيون.

– الإفخارستيّا: كانت رغبة المناولة مضطرمةً لديه. كان يشعر، حسّيًّا، بوجود اللّه فيها. وقد سُمحَ له، استثنائيًّا، أن يتناول يوميًّا، في حين كانت هذه الفرصة محظورةً حتّى على الراهبات.

أصداء ارتداد ألفونس راتسبون

كان ألفونس يأمل في أن يقودَ ارتدادُه سائر أفراد أُسرته إلى الارتداد أيضًا. ولكن، في الواقع، كان لارتداده وقع القنبلة، فانهالت عليه الرسائل، طافحةً بالتنديد، والاتّهامات الباطلة، والتهديد أحيانًا. غير أنّ هذا الموقف لم يمنعْه من مواصلة الصلاة، من أجل اهتداء ذويه، ومن دعوته أخاه الكاهن إلى مشاركته الصلاة لأجل هذه النيّة.

ولا مفرّ من الإشارة إلى تأثير ارتداد ألفونس، ولو ببطءٍ، على بعض أفراد أُسرته.

فعمّه لويس راتسبون، قد خصّه بجزءٍ من ميراثه، رغم اعتناقه الدين المسيحيّ، وارتدائه الثوب الكهنوتيّ. وكان عمُّه هذا يعلن أنّ جميع فقراء العالم ينتمون إلى دينٍ واحدٍ.

وكان لشقيقه هنري أصدقاء كاثوليكيّون كُثُرٌ، ومنهم كهنةٌ. وقد طلب، في ساعة موته، أن يوضع في تابوته، إكليلُ شوك المسيح، الذي أرسله له أخوه الكاهن من القدس. وكان يعلّق، دائمًا، الإيقونة العجائبيّة، في عنقه.

وشقيقته إرنستين، زوجة صاحب مصرفٍ، لم تتردّد في تمويل مشاريعه الأولى في فلسطين، وطلبت، بإلحاحٍ، أن يكون إلى جانبها، في ساعاتها الأخيرة.

وقُبَيلَ موتها قالت لوصيفتها ولخادماتها:

– هل تعلمنَ أنّ لي أخَوَين مكرّسَين لخدمة اللّه؟ أليس ذلك رائعًا، ومبعثَ عزاء؟

وقد خصّت شقيقَها ألفونس بجزءٍ من ميراثها، ولكنّه، هو، رفضه، لئلاّ يظنّ أحدٌ أنّ إقامته إلى جانبها، في نزاعها، كان طمعًا في مغنمٍ مادّيٍّ.

وحده، أخوه الكاهن تلقّى نبأَ اهتدائه بتفجّرِ فرحٍ وسعادةٍ، فقد تخطّى هذا التحوّل كلّ ما كان يتأمّل ويحلم

به. وقد استفزّ لدى جميع المؤمنين الذين أعلنَه لهم أمواجَ اندفاعٍ وشكرٍ للربّ وللعذراء.

انتشر نبأ ارتداد ألفونس راتسبون في باريس، عن طريق التناقل الشفويّ، وكانت له أصداءٌ واسعةٌ، مع أنّ وسائل الإعلام التزمت صمتًا مطبقًا حوله، لأسبابٍ لا تخفى على أحدٍ.

وبما أنّ الحدَث جرى في روما، فقد أجرت كنيسة روما، ممثّلةً بالبابا غريغوريُس السادس عشر، بصفته أُسقف روما، لا بصفته رئيس الكنيسة الجامعة، دعوى تحقيقٍ، بغيةَ التثبّت من صفة ما حدث: هل هو معجزةٌ، أو ارتدادٌ، أو ظهورٌ؟ وتبيّن أنّ ظهورًا أحدث تغييرًا عميقًا لا يمكن تفسيره بأسبابٍ بشريّةٍ، ومن ثمّ يمكن وصفه بالأعجوبة. ولكي لا يكون القرار مُلزمًا الكنيسة جمعاء، وقّع كلّ وثائق الدعوى الكردينال «باتريتسي» (Patrizi)، معاون البابا العامّ.

هذا الحدث الذي أَعدّت له حركةُ صلاةٍ كثيفةٌ من قِبَل

جماعات صلاةٍ مندفعةٍ، تلهمها الإيقونة العجائبيّة، تجلّى علامةَ رجاءٍ جديدةً، وفجّر بركانَ فرحٍ وثقةٍ، وأضرم مشاعرَ تكريم السيّدة العذراء، مشيعًا الأمل في إنارة أذهان مثقّفي ذلك العصر، الغارقين في اللاأدريّة.

لقد كان ذلك الحدث ردّ السماء على مماحكات مدّعي الثورات المتعدّدة الوجوه، ودعمًا للكنيسة الواقعة فريسةَ تساؤلاتٍ حيرى.

بُدئت الاستجوابات في ١٧ شباط، وتناولت تسعةَ شهودٍ رئيسيّين، منهم «تيودور دي بوسّيير»، وألفونس راتسبون نفسه، ورئيس الجمعيّة اليسوعيّة. واستمرّ الاستجواب نحو شهر.

وتمّ بحثٌ دقيقٌ في سوابق ألفونس راتسبون، وفي ما واكب ارتدادَه: هل كان لتنشئتِه السابقة تأثيرٌ على ما حدث؟ هل كان لديه استعدادٌ للرؤى والهلوسات؟ هل حدَت ارتدادَه أيّةُ مصلحةٍ شخصيّةٍ؟ هل بوسع تأثيراتٍ بشريّةٍ مباشرةٍ،

تفسيرُ تحوُّله المباغت؟ وهل كان الظهور نتيجةَ خدعةٍ أُجريت في الكنيسة؟ وهل كان ألفونس صادقًا، وهل ساوره، لاحقًا، ندمٌ أو تردّدٌ؟ وما موقف الرأي العامّ؟

وانتهت التحقيقات إلى قرارٍ صدر في ٣ حزيران ١٨٤٢، اعترف بـ «معجزةٍ كبرى وحقيقيّةٍ أجراها كلّيّ القدرة والجلالة، بشفاعة القدّيسة العذراء مريم: أي ارتداد ألفونس ماري راتسبون، ارتدادًا فوريًّا وكاملاً».

وظلّت الصحافة متحفّظةً حول نشر هذا النّبأ. ولا ريبَ أنّ تكتّم الأخوين تيودور وألفونس راتسبون قد أسهم في دعم هذا التحفّظ.

كان ألفونس سعيدًا في روما التي غدت مربعَ إلهامه، ونبعَ حياته الروحيّة. ولكنَّ ذويه كانوا يستعجلون عودتَه، أملاً في تبديد وهمٍ ظنّوا أنّه كان له ضحيّةً. وكان، هو، راغبًا في اتّخاذ قرارٍ حاسمٍ بشأن خطوبته ومستقبلِه. وعاد إلى فرنسا، في كتمانٍ، بلا ضجيجٍ ولا وداعٍ، ولكنّه كان ما يزال تحتَ تأثير ما قلب حياتَه قبل شهرين. وكان ابتعادُه عن روما يمزّق

قلبَه، كما تُظهر رسائله إلى «أبيه الروحيّ»، «تيودور دي بوسّيير».

محطّته الأولى كانت لقاءَه، في باريس، بأخيه الأكبر الأب تيودور الذي سبقه إلى الارتداد وإلى الكهنوت. وكان لقاؤهما مضمّخًا «بفرحٍ يستعصي على الوصف».

كان ألفونس قد أعرب لأخيه، عقبَ ارتداده، عن كرهه الشديد، ولكنّ الأخ الأكبر كان قد غفر له، وقد كتب، بعد نحو خمسٍ وثلاثين سنة، عن لقائهما: «ظللنا جاثيَين، على مركعٍ واحدٍ، أكثر من نصف ساعةٍ، لا نقوى على التلفّظ بكلمةٍ واحدةٍ، نبكي فرحًا وشكرانًا».

في باريس كان ألفونس يتنقّل من رياضةٍ روحيّةٍ إلى أخرى، ومن عظةٍ إلى أخرى، ويزدادُ يقينًا بأنّ «الكاثوليكيّة رائعةٌ، رائعةٌ... إنّها الفردوس الأرضيّ. كفى، يا إله المراحم... اسكبْ على أُسرتي فيض النعم التي تغدقها عليّ!».

قضيّة خطوبته كانت ما برحت تؤرّقُه، إلى أن وردته من

أخيه، والد خطيبته، رسالةٌ تؤكّد القطيعة بينهما، قطيعةً كرّستها خطيبتُه في رسالةٍ بتاريخ ١٨٤٢/٣/٦ قالت فيها:

«لديّ كلمةٌ واحدةٌ أقولها لك، يا ألفونس. كلمةٌ شاقّةٌ أرتعدُ وأنا أكتبها! ولكنّني مخطئةٌ إذ أرتعد، فعلى النفس القويّة أن تكتمَ في قلبها كلّ صوتٍ ما خلا صوت الواجب!

«أنت لا تستطيع أن تتزوّجني إلاّ إذا اعتنقتُ الكثلكة. إذن، عليك، يا ألفونس، أن تتخلّى عنّي، فلن أتحوّل أبدًا عن ديني.

«وما يزيد من استحالة زواجنا هو يقيني بأنّ والدتي لن تباركه من السماء. بعد الآن، سأَعُدّك أخًا، وسأحبّك على هذا الأساس».

لقد قُطعت كلّ الروابط التي كانت تشدّه إلى الأرض، وغدا بوسعه حمل الصليب الذي فتنه، والانطلاق على دروب الله. وقد كتب، في هذا الشأن: «رسائل أُسرتي تعيد لي كلّ حرّيّتي. هذه الحرّيّة أكرّسها لله، وأقدّمها له، منذ الآن، مع حياتي كلّها، خدمةً للكنيسة ولإخوتي، تحت حماية مريم».

غير أنّه لم يفقد الرجاء، وظلّ يرجو هبوط الهداية على خطيبته، ويصلّي لهذه الغاية.

في الآن عينِه كانت تتوطّد لديه الرغبة في النأي عن العالم، ويستعرُ في نفسه العطشُ إلى الصمت والصلاة لكي يعمّقَ النعمة التي تلقّاها مجّانًا وسريعًا. ونصحه معرّفُه بخلوةٍ روحيّةٍ أُخرى، هي الرابعة منذ اهتدائه، كي يختار طريقَ مستقبله بهدوءٍ.

وبمناسبة هذه الخلوة عكف ألفونس، نزولاً عند إلحاح مرشديه الروحيّين، على تدوين خبرة ارتداده، مع نفوره من ذلك التدوين، إذ إنّه كان يشعر بأنّ إعلانَه الحدث سيفقدُه الكثيرَ من حميميّتِه وقدسيّته. ولطالما خامر مثل هذا الشعور مرتدّين آخرين. ولكنّه كان يأمل في أن يعفيه هذا التدوين مستقبلاً، من واجب الإجابة على سيل الاستفسارات التي ستُطرح عليه بهذا الشأن.

كان خَفَره وتواضعه يحولان دون تحدّثه عن نعمةٍ تتخطّاه، وعمّا يتعذّر التعبير عنه بكلماتٍ بشريّةٍ، ولذلك آثر استخدام أقوالٍ رمزيّةٍ، مثل قوله: «كنتُ أخرج من قبرٍ، من هوّة

ظلماتٍ، إلى حياةٍ حقيقيّةٍ... ولكنّني كنت أبكي. كنتُ أشهد، في أعماق الهوّة، البؤس الأقصى الذي انتشلتني منه رحمةٌ لامحدودةٌ».

حقائق كثيرةٌ تكشّفت له، على نحوٍ لم يدركه: «كلّ ما أعرفه هو أنّني دخلت الكنيسة، وأنا أجهل كلّ شيءٍ، وخرجت منها، وأنا أرى بوضوحٍ».

وبعد مضيّ سبعٍ وثلاثين سنةً، كانت ذكرى رؤياه للعذراء من شدّة الأسر، بحيث يتعذّر عليه تخطّي حاجز الكلام، فقال لراهباتِ ديره، في عين كارم: «أَخواتي العزيزات، أنتنّ تطلبنَ منّي أن أحدّثَكنّ عن العذراء القدّيسة. لقد كانت جميلةً، جميلةً... كانت نورًا في قلب النور!». عندئذٍ انفجر نحيبًا، ونهض يقول: «لاتطلبنَ منّي، بعد الآن، أن أروي لكنّ ذلك الحدث!».

توجّهٌ نحو الكهنوت

بعد أن أمست قطيعتُه مع خطيبته نهائيّةً، كرّس حياتَه كلَّها للّه. وبما أنّ الآباء اليسوعيّين كانوا شهودَ ارتدادِه، وعمادِه، ومرشدي حياتِه الروحيّة، خطر له أن ينتسب إلى جمعيّتهم.

يوم ٢٦ أيّار طُلِب منه الاشتراك في تطواف «خميس الجسد»، مرتديًا قميصًا كهنوتيًّا. ولكي يتلافى لفت الأنظار، لم يتوانَ عن التضحية بلحيته التي كان، من قبلُ، يتباهى بها.

ولطالما أكّد أنّ انضمامه إلى الجمعيّة اليسوعيّة كان إلهامًا من العذراء، وكان يستهدف منه:

– حياةً خفيّةً تندرج في الطاعة، على غرار يسوع.

– التزوّد بالنسغ الرسوليّ، لخدمة الجميع، وخصوصًا اليهود.

ومنذ ذلك الحين كان يحلم بإشادة مركزٍ في القدس. ومع أنّ الجمعيّة اليسوعيّة لم تكن تملك مثل هذا المركز، ظلّ أمله في تحقيق هذا الحلم، حيًّا، يعتمل في نفسه.

وفي تلك الفترة، كتب إلى صديقٍ يهوديٍّ قديمٍ يُدعى «أوجين سيمون»:

«أشكر لك اعتدال لهجةِ رسالتك، الذي لم آلفه لدى أصدقائي وأبناء ديني القدامى. فمعظمهم، عوضًا عن إعمال الفكر، جدّيًّا، في أمر ارتدادي المباغت، استسهلوا تفسيرَه بطريقةٍ مهينةٍ، وبتخيّل كلّ شيءٍ ما خلا الحقيقة البسيطة. إنَّ حكمك المتحفّظ قد أثّر فيّ، ولا سيّما أنّك، أكثر من أيّ شخصٍ آخر، محيطٌ بانحرافاتي السابقة، وبكلّ ضلالات إلحادي.

«إنّك تؤكّد، بكلّ بساطةٍ، عدم إيمانك بالمعجزة، وأنا لن أسعى إلى إثباتها لك. ولكن، إن كنتَ تؤمن بصدق

طويّتي، فإنّي أدع لك أن تفسّر، كما تشاء، التحوّل العميق الذي طرأ عليّ. فقد كنتُ، مثلك، مُجرّدًا من كلّ إيمانٍ دينيٍّ، ومثلك لم أكن أؤمن بالمعجزات المنسوبة إلى موسى، وكنت أرفض، بكبرياءَ، العهدين القديم والجديد، مع أنّي لم أطّلع على أيٍّ منهما. هكذا كنتُ، لا يستهويني سوى الحبّ والمتعة، عندما دخلت الكنيسة، وخرجت منها مسيحيًّا، مسيحيًّا حقًّا...

«لقد حدث ذلك منذ خمسة أشهرٍ. وفي هذه الأثناء، وافيت إلى باريس، ورأيتُ، مجدّدًا، كلَّ ما كنت أهواه سابقًا، وتعرّضت لشتّى موجات الغمّ والإغواء، ولكنّها لم تُضعِفْ، في شيءٍ، أسر النعمة الإلهيّة. واليوم، كما حدث لي، قبل خمسة أشهرٍ، أتذوّق سعادةً تفوق كلّ شعورٍ، سعادة معرفة يسوع المسيح، المسيح الذي وُعدَ به آباؤنا، وبشّر به جميع الأنبياء، وانتظرَتْه جميع الأمم».

ومع ذلك لم تذبل فيه الرغبة في مدّ يد الغوث لليهود المعوزين، فأرسل إلى مسؤولي جمعيّة تشغيل الشبّان اليهود،

التي رئسها، يومًا، في ستراسبورغ، مبلغ ألفي فرنك راجيًا قبولها من زميلٍ قديمٍ ما زال يدعو من أجل ازدهار تلك الجمعيّة.

تخلّى من كلّ شيءٍ، حتّى عن حلم الاستقرار في القدس، فتلبية نداء السماء لا تحتمل أيّ إرجاءٍ. لقد أُعطي كلّ شيءٍ، وفي الحال.

كان نظام الجمعيّة اليسوعيّة يمنع استقبالَ يهودٍ في صفوفها، إلاّ باستثناءٍ صادرٍ عن الحبر الأعظم، وكان قد قُدّم طلبٌ إلى البابا، بهذا الشأن. ومع أنّ الموافقة لم تكن قد وردت، بعدُ، سُمح للمهتدي بمباشرة فترة الابتداء، بدءًا من ١٤ حزيران ١٨٤٢. وقبل انطلاقه، حرص ألفونس على توزيع كلّ ما كان يملك، بلا تحفّظٍ. وحسب قول أخيه الأب تيودور «مضى فقيرًا، كي يباشر الابتداء فقيرًا».

هجر العالم الذي كان قد أغدق عليه كلّ امتيازاته، بفرح من يتركون كلّ شيءٍ، في سبيل اللّه.

ففي الواقع، كان ألفونس راتسبون قد اكتشف كلّ شيءٍ،

بمجرّد رؤيا المرأة المباركة بين النساء، العذراء المنزّهة من الدنس، مع أنّه لم يرَها إلاّ جزئيًّا، ولم يرَ حتّى وجهها، وهي لم تقل له شيئًا، ولكنّها كانت تشعّ نور اللّه. وهذا النور هو الذي نفذ إلى أعماق قلبه. وقد قبل عقله، في لحظةٍ، ما دأبت ثقافته، مدى سنواتٍ، على إنكاره: مطلق اللّه، وجنون وحيه، جنونًا أودى به إلى الصليب الذي تراءى له في الليلة التي سبقت رؤياه للعذراء.

في لحظةٍ، رأى جوهرَ الحقيقة، وبطلانَ حياته البعيدة عن اللّه. اكتشف حبًّا جديدًا قشيبًا، نابعًا من البذل الكامل، وأضحى جاهزًا لكلّ محنةٍ، للصليب، وللموت. لم يعدْ يخشى شيئًا، وأضحت إحدى قدميه في العالم الآخر.

وتابع، طيلة عشر سنواتٍ، ثقافته الروحيّة في مدرسة الآباء اليسوعيّين، في تسليمٍ تامٍّ، وعطاءٍ بلا تحفّظٍ. ولكنّ قلبه كان توّاقًا إلى أورشليم.

بقيّةَ حياتِه ستكون شاقّةً، مشبعةً بالضربات، والافتراءات، ولكنّها لم تُفقدْه الفرح الراسخ، الذي تحجبه المصاعب

والعقبات والمحن، ولكن لا تقوى على اقتلاعه، الفرح الذي فجّرته، في نفسه، المباركة بين النساء، والذي سيظلّ عاجزًا، حياته كلّها، عن التعبير عنه، ولكنّه سيستمرّ في توجيه حياته بصمتٍ، وفي سياق سرٍّ يتخطّاه.

الكاهن المؤسّس في القدس

سيم ألفونس كاهنًا، بعد مضيّ ستّ سنواتٍ على اهتدائه، أي بتاريخ ٢٣ أيلول ١٨٤٨. وكُلّف، أوّلاً، بالوعظ.

وفي أيلول من عام ١٨٥٢، عُيِّن معلّمًا في معهدٍ ثانويٍّ. ولكنّ التعليم لم يكن هو ما يستهويه، ولا سيّما أنّ اتّصالاتِه بأخيه كانت تشدّه نحو القدس، على خطى يسوع ومريم العذراء، حيث كانا يعتزمان تأسيس رهبنة سيّدة صهيون.

وأخيرًا، في الثلاثين من آب ١٨٥٥، أبحر من مرسيليا، ميمّمًا شطرَ القدس التي وصل إليها في ١١ أيلول، بعد توقّفٍ طويلٍ في الإسكندريّة التي تسنّى له أن يزور ويتأمّل معالَمها وآثارها.

في القدس، أسّس دير راهبات «هوذا الرجل» (Ecce Homo)، في موقعٍ يُعتقد أنّه أحد مواقع محاكمة يسوع، وديرًا آخر، في عين كارم، حيث زارت العذراء مريم نسيبتها إليصابات.

وأخيرًا أسّس مدرسةً مهنيّةً لتدريب الشبّان الفلسطينيّين، وتمكينهم من مختلف المهن والفنون. وما زالت تلك المدرسة تحمل اسم «راتسبون».

وقد ساق ألفونس، في فلسطين، حياةً حافلةً بالمخاطر، إذ كان يسافر على متنِ حصانٍ، معرِّضًا نفسه لهجمات اللصوص، ولشتّى الحوادث، وقد سقط، يومًا، عن متنِ حصانِه، على الطريق بين القدس والناصرة، وخلّفت تلك السقطة له آلامًا لم تبارحْه حتّى وفاته.

غير أنّه كان يتقبّلُ كلّ شيءٍ، الحلو والمرّ، بجاهزيّةٍ تامّةٍ، وبتسليمٍ ورجاءٍ. وفي سبيل دعم مشاريعه وتمويلها، كان يلقي محاضراتٍ في فرنسا وألمانيا، رغم ما كان يثيره ارتداده عن اليهوديّة من عداواتٍ وهجماتٍ وافتراءاتٍ.

ولكنّ نبراسَ حياتِه ظلّ دائمًا النور الذي أشرق على نفسه في العشرين من كانون الثاني ١٨٤٢، وقد اتّخذ شعارًا: «ينبغي توسيعُ رقعة القلب، وعدم التمييز بين اللاتينيّ واليونانيّ، المحمّديّ واليهوديّ، بل تقبّل كلّ شيءٍ بحبٍّ».

توفّي الأب ماري ألفونس راتسبون، عام ١٨٨٤، مختتمًا حياةً حافلةً بالتحدّيات، والمخاطرات، والإنجازات، وبالتضحيات والمصاعب، التي لم تفلح في خنق فرحٍ عميق الغور، متفجّرٍ من ينابيع الحقّ الإلهيّ الذي أشرق، يومًا، على نفسه، من خلال العذراء مريم، فقلب كيانه، وحوّل مسيرته، وملأ نفسه بالجوهريّ الذي يغني عن كلّ شيءٍ سواه.

في أيّامه الأخيرة كان قد أمسى شبه أعمى، ولكنّه ما برح متمكّنًا من الصلاة، ومن التفكير بالآخرين، محتفظًا بقلبٍ يسكنه السلام، سعيدًا بما جناه من حصادٍ. ولمّا حانت ساعة راحته، كانت كلماته الأخيرة: «كلّ رغباتي تحقّقت».

كثيرون ممّن عرفوه عن كثبٍ تمنّوا إعلانَ قداستِه، غير أنّ حتّى محاولة كتابة سيرته طالما تعرّضت للمقاومة، وكأنّها ضربٌ من «اللاساميّة».

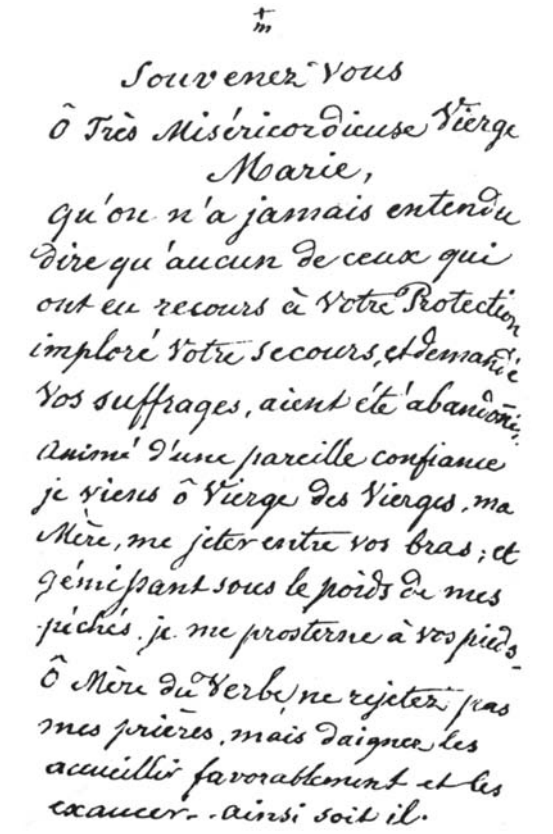

+
m

Souvenez vous
ô Très Miséricordieuse Vierge
Marie,
qu'on n'a jamais entendu
dire qu'aucun de ceux qui
ont eu recours à Votre Protection
imploré Votre secours, et demandé
Vos suffrages, aient été abandonné.
Animé d'une pareille confiance
je viens ô Vierge des Vierges, ma
Mère, me jeter entre vos bras; et
gémissant sous le poids de mes
péchés. je me prosterne à vos pieds.
ô Mère du Verbe, ne rejetez pas
mes prières, mais daignez les
accueillir favorablement et les
exaucer. ainsi soit il.

صلاة «أذكري...»

وقد نسخها ألفونس راتسبون بيده في ١٨٤٢/١/١٥

ألفونس راتسبون باللحية

ألفونس راتسبون وقد ضحّى بلحيته

الأب تيودور راتسبون
شقيق ألفونس الذي سبقه في اعتناق الكاثوليكيّة

الفهرس

من هو ألفونس راتسبون؟	١٩١
اعتناق تيودور راتسبون العقيدة الكاثوليكيّة	١٩٥
ألفونس يسوق حياة لهوٍ ومتعةٍ وإلحاد	٢٠١
خطبة وسفر	٢٠٣
الرحلة التي حسمت مصيره	٢٠٧
محطّة روما المصيريّة	٢١١
عماد ألفونس ١٨٤٢	٢٤٢
أصداء ارتداد ألفونس راتسبون	٢٤٨
توجّهٌ نحو الكهنوت	٢٥٧
الكاهن المؤسّس في القدس	٢٦٣

المطبعة البولسيّة
جونية - لبنان